جامعة: جنوب الوادي- فرع الغردقة

كلية التربية

محاضرات في مقرر

"مدخل إلى الأدب العربي"

الفرقة: الأولى أساسي لغة عربية

إعداد/

قسم اللغة العربية

٢٠٢٣م/٢٠٢٤م

بيانات المقرر

الكلية: التربية بالغردقة.

الفرقة: الأولى.

التخصص: عام وأساسي لغة عربية.

التاريخ: ٢٠٢٣-٢٠٢٤م.

عدد الصفحات: ١٣٧ صفحة.

عدد ساعات المقرر: ٢ ساعة.

الإعداد: قسم اللغة العربية.

****

رؤية الكلية:

كلية التربية بالغردقة مؤسسة رائدة محليًا ودوليًا في مجالات التعليم، والبحث العلمي وخدمة المجتمع، بما يؤهلها للمنافسة علي المستوي: المحلي، والإقليمي، والعالمي.

رسالة الكلية:

تلتزم كلية التربية بالغردقة بإعداد المعلم أكاديميًا ومهنيًا وثقافيًا من خلال برامجها المتميزة بما يؤهله للمنافسة والتميز في مجتمع المعرفة والتكنولوجيا، ومواجهة متطلبات سوق العمل محليًا وإقليميًا، وتهتم بتطوير مهارات الباحثين بما يحقق التنمية المهنية المستدامة، وتوفير خدمات تربوية لتحقيق الشراكة بين الكلية والمجتمع.

****

الفصل الأول

المبحث الأول: تمهيد:

ما الأدب؟

إنَّ كلمةَ (الأدب) من المصطلحاتِ التي دار حولها الجدلُ، وتعدَّدت وتباينت فيها الأنظارُ، وتجاذبتها الأطرافُ، وما زالت موضع دراسة وبحث حتى يومنا هذا، وقد تَتَبَّع بعضُهم الأحوال التاريخية لإطلاق هذه الكلمة، فوجدوها تمرُّ بالأطوار التالية:

• ففي الجاهليةِ وصدر الإسلام: كان أولُ استعمالٍ لها في كلامهم شعرًا ونثرًا بمعنى الدعوة إلى الطعام، فإنهم يقولون: (أدبَ القومَ يأدبُهم أدبًا)، إذا دعاهُم إلى طعامٍ يَتَّخِذُه، كما اشتقُّوا كلمة (المأدبة) وهي الوليمة، وقد تحوَّل هذا المعنى الحسِّيُّ إلى معنًى نفسيٍّ ينطوي فيه وزن الأخلاق وتقويم الطباع والمناسبة بين أجزاء النفس في استوائها على الجملة، ثم اتسع تعريف الأدب ليشمل التهذيب اللساني إلى جانب التهذيب الخُلقي وهو النشأة الصالحة وحب الفضيلة والابتعاد عن الرذيلة، فقد ورد في الدرر المنتثرة أن أبا بكرٍ رضي الله عنه قال: يا رسول الله لقد طفتُ في العرب وسمعت فصحاءهم فما سمعت أفصح منك فمن أدبك؟ قال صلى الله عليه وسلم: (أدبني ربي ونشأت في بني سعد). (الضعيفة ٧٢ – ضعيف الجامع ٢٥٠)، كذلك جاء عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قوله لابنه: يا بني انسب نفسك تصل رحمك، واحفظ محاسن الشعر يحسن أدبك، وهناك تقارب بين المعنى الذي استخدمت فيه في الجاهلية والإسلام، فالتهذيب النفسي واللساني اللذان برزا في مدلولها في العصر الإسلامي مظهر من مظاهر الخلق الحسن الذي نتج عنه الدعوة إلى الطعام كما استعملت في العصر الجاهلي.

• وفي العصر الأُمويِّ ظلَّت لفظةُ الأدب بالمعنى الخلقي والتهذيبي، ولكنها تحمل معنًى آخَرَ وهو معنى تعليميٌّ، فقد ظهرت طائفة من المعلِّمين تسمى "المؤدِّبين" كانوا يعلِّمون أولاد الخلفاء فيلقنونهم الشعر والخطب وأخبار العرب وأنسابهم وأيامهم في الجاهلية والإسلام، وأتاح هذا الاستخدام لكلمة أدب أن تكون مقابلةً لكلمة العلم الذي يطلق حينئذ على الشريعة الإسلامية وما يتَّصل بها، وكان مفهوم الأدب يطلق على المعلمين الذين يؤدبون أولاد الخلفاء وغيرهم بتلقينهم الخطب والشعر وأخبار العرب وأيامهم، فسمي هؤلاء بالمؤدبين.

• وفي العصر العباسيِّ استفاضَ استعمال كلمة أدب، وكانت مادة التعليم الأدبيِّ قائمة بالرِّواية من الخبر والنسب والشعر واللغة... ونحوها، فأُطلِقت على كل هذا، وأُنزلت منزلة الحقائق العرفية اصطلاحًا، وبهذا المعنى نقلَ ابن خلدون عن الأدباء في حدِّ الأدب أنَّه: "حِفظ أشعار العرب وأخبارها والأخذ من كل علمٍ بطرف"، وقد صارت الآدابُ تُطلق على فنون المُنادمة وأصولها التي جاءتها عن طريق الغناء؛ إذ كانت تُطلق عليه في القرن الثالث الهجري؛ لأنه بلغ الغاية من إحكامه، وكانوا يعدُّون معرفة النغم وعلل الأغاني من أرقى فنون الآداب، وفيها وضع عبيدالله بن طاهر – من ندماء الخليفة المعتضد بالله – كتابَه "الآداب الرفيعة"، ولم ينتصف القرن الرابع الهجري حتى كان لفظُ الأدباء قد زال عن العلماء جملةً وانفرد بمزيته الشعراء والكتَّاب في الشهرة المستفيضة؛ لاستقلال العلوم يومئذٍ وتخصص الطبقات بها.

معنى الأدب في صحيح البخاري:

"الأدب" هو ترويض النفس على محاسن الأخلاق وفضائل الأقوال والأفعال التي استحسنها الشرع وأيدها العقل، وهو استعمال ما يحمد قولا وفعل، وهو مأخوذ من المأدبة وهو طعام يصنع ثم يدعى الناس إليه، وسمي

بذلك لأنه مما يدعى كل أحد إليه، المراد هنا بيان طرق الأدب وبيان أنواعه وما يتحقق به، كذلك الإمام البخاري أطلق هذا اللفظ على قسم من كتابه (الجامع الصحيح) سماه (كتاب الأدب).

وجمع فيه الأحاديث التي تدل على حسن الخلق من طاعة الوالدين والعطف على الأيتام ومراعاة حق الجار والصبر إلى غير ذلك من الفضائل، بل أفرد البخاري مصنفا كاملا وسماه (الأدب المفرد).

معنى الأدب في سنن ابن ماجه:

الأدب هو حسن الأخلاق وحسن التناول ومراعاة حد كل شيء واستعمال ما يحمد قولا وفعلا والأخذ بمكارم الأخلاق وتعظيم من فوقك والرفق بمن دونك والوقوف مع الحسنات، وفي القرن الثالث الهجري أصبحت تطلق كلمة (أدب) على مادة التعليم الأدبي خاصة وهي الشعر والنثر وما يتصل بهما من الأخبار والأيام والطرائف، ثم على هذا استقر مدلول الكلمة، وألفت كتب في الأدب تجمع هذه الأنواع مثل: (البيان والتبيين للجاحظ، والكامل في اللغة والأدب للمبرد، والأمالي لأبي علي القالي، والعقد الفريد لابن عبد ربه) وغيرها.

فالأدب من خلال النظرة الإسلامية هو كل قول أو فعل يؤثر في النفس ويهذب الخلق ويدعو إلى الفضيلة ويبعد عن الرذيلة، بأسلوب جميل.

أما الأدب بمعناه العامِّ:

فإنه يشمل كلَّ ما أنتجه عقل الإنسان، وكان له أثر من آثار تفكيره، وهو يرادف لفظ الثقافة، فالعلوم الفلسفية والرياضية والطبيعية والاجتماعية واللسانية، وكلُّ فن من الفنون الجميلة كالشعر والكتابة، وكلُّ ما يدعو إلى تثقيف العقل يدخل في باب الأدبِ بمعناه العامِّ، وقد استدلُّوا على المعنى

العامِّ للأدب بتعريف الحسن بن سهل (ت ٢٣٦هـ) إيَّاه بقوله: "الآداب عشَرة: فثلاثة شهرجانية، وثلاثة أنوشروانية، وثلاثة عربية، وواحدة أربَت عليهنَّ، فأما الشهرجانية، فضربُ العود ولعب الشطرنج ولعب الصوالج، وأما الأنوشروانية، فالطبُّ والهندسة والفروسية، وأما العربية، فالشعر والنسب وأيام العرب، وأما الواحدة التي أربت عليهن، فمقطَّعات الحديث والسمر وما يتلقّاه الناس بينهم في المجالس"، كما أُلِّفت كتبٌ كثيرة في الأدب بمعناه العامِّ منذ أواسط القرن الثالث حتى أواسط القرن الخامس الهجريِّ، ومنها الأدب الكبير والأدب الصغير لابن المقفع.

وأما الأدب بمعناه الخاصِّ:

فيمكن تلخيصه بتعريف جامع شامل يحاول التوفيق بين تعريفات المُحْدَثين، فيكون: هو كل ما يؤثِّر في النفس من نثرٍ رائع وشعرٍ جميلٍ، يُراد به التعبير عن مكنون العواطف والضمائر وسوانح الخواطر بأسلوب إنشائيٍّ أنيق، يُطلَق على الشعر والنثر الفنيِّ فحسْب.

وأما مفهوم الأدب حديثًا:

فما زالت كلمة (أدب) تثير الجدل والتساؤلات عند أصحاب "نظرية الأدب" في العصر الحديث، وهم غالبًا لا يراجعون المفاهيم التي طرحها النقاد القدامى ليبحثوا عن بديل آخر يشرح الكلمة أو يوضِّح معناها، لكنهم يكتفون بإثارة التساؤلات حول المفاهيم السابقة.

ومن هذه المفاهيم:

١ – تعريف الأدب بأنه "هو كلُّ شيء قيد الطبع".

٢ – وهناك تعريف ثانٍ للأدب يقصره على الكتب العظيمة.

٣ – وهناك من يقصر الأدب على فنِّ الأدب التخييلي الابتداعي، والكتابة التخييلية – بحسبهم – هي التي تصدر من الخيال فلا تطابق الواقع.

٤ – وهناك من يعرِّف الأدب بأنه كل كتابة تستخدم اللغة استخدامًا خاصًّا تختلف عن استخدامها في الحياة اليومية والعلمية.

٥ – وهناك من يعرِّف الأدب بأنواعِه التي يتضمنها، ووَفقًا لهذا التعريف يصبح الأدب هو كلَّ كتابة تنتمي إلى الشعر والرواية والخطبة والمسرحية والقصة القصيرة والتراجيديا والحكمة، أما الكتابات الأخرى كالتاريخ والفلسفة وغيرها من العلوم فهي خارج إطار الأدب.

وهكذا نرى أن مصطلح الأدب لم يتحدد، وليس له تعريف متفق عليه في الغرب ولا في الشرق.

مفهوم الأدب حديثًا عند العرب:

من أبرز من عرَّف الأدب من المحْدَثين العرب: طه حسين الذي عرَّفه بأنه: "فن جميل يتوسل بلغة"، وقد دارَ حولَ تعريفِه شيءٌ من الجدل، ولكن يظهر من نظرته أنها شبيهة بنظرة أرسطو للشِّعر حيث رأى أن الأدب فنٌّ من الفنون، وهي نظرة تُوَسِّع من دائرة فهم الأدب وتذوُّقه؛ لأنها تربطه بالفنون غير القولية التي يمكن الإفادة منها، فالفنون نوعان: فن يستعين بالكلمة، وفن لا يستعين بالكلمة وهو علم الجمال، ولهذا فإن طه حسين لا يقدم نظرة جديدة للأدب؛ لأن الفلاسفة القدامى كانوا يربطون بين الأدب والفنون الأخرى، فأرسطو قال: "إن الفنون كلَّها تخرُج من بذرة واحدة، وهي المحاكاة".

والنظرة الجديدة قد حرَّرَت الأدب، فلمْ يعُد مقصورًا على الكلمة المكتوبة ولم يعُد مرتبطًا بأنماط السلوك، بل أصبح فنًّا جميلًا – مكتوبًا أو شفهيًّا – يتوسل باللغة؛ أي: إنه يشترك في جوهره مع سائر الفنون التشكيليَّة والغنائيَّة والتمثيليَّة، وفي هذا الصدد يمكن تلخيص ماهية الأدب في تعريفٍ أدبيٍّ هادف:

إنّ مَعْنَى "الأدَب" فِي الأصْل اللُّغَويِّ مَأخُوذٌ مِن "مَأدُبَة" أيِ: الطَّعام الّذي يُدْعَى إلَيه الناسُ.. ولِذلكَ كانَ مَعْناهُ فِي الاصْطِلاح يشْمَل: التَثْقِيفَ والتَهْذيب فِي العَقْلِ والشُعُورِ، فَكَمَا أنَّ الطَّعَامَ يُغذِّي الأبْدانَ؛ فإنَّ الأدَبَ يُغذِّي الوِجْدانَ.

والإنسانُ مَهْمَا بَلَغَ في العِلْمِ، إذَا لَمْ يَتعلّم الأدَب، فَلَسَوْفَ يَبقَى ناقِصًا! والشافِعيُّ – وهوَ العالِمُ الأدِيبُ – كانَ يَقول: (مَن نظَرَ في العرَبيَّةِ وحَفِظَ الشِعْر؛ رَقَّ طَبْعُه)، فهذهِ هيَ مادَّةُ الأدَبِ الَّتِي في دِراسَتِها تَتَفَتَّحُ آفاقُ التفْكِير.

الفرق بين الشعر والنثر:

"ما هو الفرق بين الشعر والنثر في الأدب؟"

إن الشعر والنثر من الفنون الأدبية العربية التي تنقسم إلى المقال والقصة والرواية وهي تلك الآليات التي يستخدمها الكاتب والشاعر لكي يعبر عن مفاهيمه الشخصية، أو أن يشير إلى ما يجوّل في خاطره من خلال تعبيره عن قضية مهمة قضية من خلال التعرف على مفاتيح الشعر وفنون النفس وفنون النثر وكلاهما نمطين مختلفين في طريقة الكتابة ومتشابهين في المضمون؛ ولاسيما وأنهما أعمال يهدف بها الكاتب أو الشاعر من أجل تقديم عملاً إبداعيًا.

والشاعر يهتم بدارسة الوزن والقافية بغرض كتابه الشعر العمودي والحر، بينما في النثر فيتوجب على الكاتب عرض أفكاره من خلال مسرحيه شيق وجذاب للجمهور أو في مقاله نقديه وكذلك بإقناع الجماهير من خلال إلقاء خُطبة حين يتمتع الكاتب أو الُمفكر من فن الخطابة أو من خلال القصة وعرض تسلسل الأحداث مع الاهتمام بالزمان والمكان والشخصيات، وكذا الحفاظ على العرض السردي في العمل الأدبي كالحكاية والرواية؛ وهما

نمطين عن الشعر، فما هو الفرق بين الشعر والنثر والزجل، وماذا عن أنواع الشعر؟

ولكي نفهم تعريف الشعر والنثر، لابد أن نشرح مفهوم الشعر ؛ فيما أن الشعر يُعرّف بأنه؛ كلام موزون ومُقفى؛ يأتي على هيئتين هما؛ الشعر الذي يصدر من الكاتب بشكل عفوي أي لم يقه الكاتب، بينما الشكل الآخر يتمثل أبيات ذات وزن مكتوبة وفقًا لبحور العروض.

إذ أن النثر نوع من أنواع الأدب الذي يصوّر للعقل الكلام والتعبيرات التي تتدفق منها الأفكار وتنطوي على المشاعر والتجارب الشخصية، من دون الوزن أو القافية.

فماذا عن الفروقات بين الشعر والنثر، هذا ما نتضمنه في السطور التالية بالتفصيل:

-يكمُّن الفرق بين الشعر والنثر في؛ تمتُّع الشعر بالوزن والقافية، ويُعد لزامًا على الشاعر أن يكتب الشعر وفقًا لنُظم مُحددة، فيما لا يمتلك النثر وزن ولا قافية ولا يلزم الكاتب به.

-يضرب الشعر بجذوره في تاريخ العرب؛ ولاسيما فقد استخُدم الشعر في العصور القديمة، فقد استخدمه العرب منذ القِدم للتعبير عن مشاعرهم، فكتبوا شعر الرثاء.

-يُلقى الشعر في هيئة الإنسان واقفًا كشرط من شروط الإلقاء، بينما في النثر فإنه قد يُلقى في هيئات مختلفة كالوقوف أو الجلوس، أو حتى في صمت يقرأه البعض باستمتاع في وضع السكون.

-يُنظم الشعر في إطار المحافظة على الفكرة مع الابتعاد عن الإطالة، بينما يدخل النثر كأحد الفنون الأدبية في فن الحوار والحديث، فيستخدمه الصحفيين في اللقاءات الصحفية والتلفزيونية.

-يعد الشعر الأقدر على إيصال المعاني المشاعر والأحاسيس بمرونة وجاذبية، بما يستخدمها الشاعر من نُظم وقوافي وأوزان، إذ أن السطور هي عبارة عن وحدة بناء أبيات الشعر.

-فيما تُعتبر الجُمل هي اللبنة الأولى للنثر، الجدير بالذكر أن الشعر عبارة عن قوافي وأوزان تظهر في الكلمات التي تتدفق من الشاعر وتحمل مشاعره وأفكاره.

الفرق بين الشعر والنثر والنظم

يُعرّف مُصطلح النظم في قاموس المعاني الجامع بأنه، ضم أشياء ببعضها، أي ألَّفَها، فيما يأتي الشعر في الجُملة شهيرة بأنه" نظم الشعر" بمعنى ألف كلام ذات قافية ووزن.

يكتب الشعراء الشعر ويتغنى به العرب منذ القِدم مُضافًا إليه الموسيقى، فيما لا يُعد النثر من أنماط الأدب الذي يُستخدم مع الإيقاع الموسيقي.

-يُطلق على أدب النثر مُصطلح السرد ويُسمى كاتب "النصوص النثرية " ساردًا"، لإنه يظهر على هيئة نصوص أدبية مكتوبة بطريقة مُفصلة، بينما يُسمى الشاعر بالـ"ناظمًا".

-يدخل فن أدب النثر في فن الحوار والحديث والخطابة التي يعتمد الخطيب فيها على مُخاطبة العقول عن طريق الإقناع.

-يدخل النثر في شتى مجالات الحياة، ومن أشهر تلك الاستخدامات هي؛ لغة الدين والدعوة إلى عبادة المولى عز وجلّ سُبحانه، بالإضافة إلى استخدامه في علم السياسية لإقناع الجماهير بالمرشحين سواء في الانتخابات الرئاسية أو النيابية.

أوجه التشابه بين الشعر والنثر

لكل من تلك الفنون الأدبية أنواع، فإن أنواع النثر تتلخص في نوعين وهما؛ الشعر العمودي والشعر الحر، بينما في الفن الأدبي الذي يتجسد في النثر متعدد في أنواعه؛ كالمقال، وكتابة المسرحيات، والقصة والرواية والخطابة.

-يكمّن التشابه بين كل من الشعر والنثر في استخدامهما؛ الاستعارة والتشبيه والرمزية والكناية؛ وهي تلك الأدوات التي تُضفي طابعًا من المرونة والجمال والجاذبية في قراءة النصوص النثرية، والاستماع إلى الأبيات الشعرية.

الشعر والنثر وانواعهما:

يُقسم الأدب إلى نوعين؛ الشعر والنثر، إذ أن لأدب الشعر أنواع متعدده تختلف وفقا الخصائص المميزة لكل نوع من تلك الأنواع؛ بينما في النثر في اللغة العربية يُعد من أبرز الآليات التي تتضمن عدد من الدلالات والرموز لذا يستخدمها الكتاب خاصة في مجال النقد الأدبي، بالإضافة إلى استخدامه بكثرة في الفنون الأدبية كالرواية والقصة وكتابة المسرحيات.

تختلف أنواع الشعر والنثر إلا أنهما ينبثقان من ذات الفن الأدبي، ولاسيما كوّنهما من أشهر أنماط فنون الكتابة العربية المُستخدمة في يومنا هذا، فماذا عن الفرق بين الشعر والنثر وانواعهما هذا ما نستعرضه في السطور الآتية:

أنواع الشعر:

الشعر الحر: هو عبارة عن نمط من أنماط الشعر التفعيلي؛ حيث يعتمد على الوحدات الموسيقية بعيدًا عن بحور العروض، الغير مُقيدة بالتفعيلات عند عرض كل سطر من الأسطر، إذ أن هذا النمط من الشعر هو الذي راج في العراق بعدما أطلقت نازك ملائكة أول قصيدة بهذا النوع من الشعر.

الشعر العمودي: ولاسيما هذا النوع من الشعر عبارة عن صدر وعجُز، فيما بات من الواضح أن هذا النوع من الشعر هو الذي يتناول أبرز المواقف الحياتية التي يعيشها البدو وكلٌ وفقًا لبيئته الشعرية.

أنواع النثر

المقال: هي نوع من أنواع الفنون الأدبية النثرية؛ إذ تتكون من مُقدمة ومتن وخاتمة، وأبرز مثالاً عليها هو المقال الذي بين أيديكم، إذ أن عناصر المقال هي؛ المقدمة؛ التي تعرض الحجج والثوابت البديهية على أن تجذب القُراء، والمتن وهو الموضوع ذاته، والخاتمة؛ حيث الخلاصة والنتائج التي توّصل إليها الكاتب.

المسرحية: هي نوع من أنواع الفنون الأدبية النثرية؛ ولاسيما أنها تتكوّن من بداية عقدة حل، فيما تبلغ المسرحية أوجها في حالة العقدة أو الصراع الدامي الذي يُعرض على خشبة المسرح للجمهور.

القصة: هي نوع من أنواع الفنون الأدبية النثرية؛ هي تلك النوع من الأدب الذي يتكون من شخصيات في زمان ومكان مُحدد فالعقدة والحل.

الرواية: هي نوع من أنواع الفنون الأدبية النثرية؛ فيما تتكون من أحداث وزمان ومكان وحوار بين الشخصيات، والعقدة.

الخطابة: هي نوع من أنواع الفنون الأدبية النثرية؛ تتفرع الخطبة إلى نوعين هما الخطبة التي ترد إلى القارئ في رسالة، تقوم على مبدأ الإقناع، بينما قد يخطب البعض في المنابر بهدف إقناع الجمهور برسالته وخطبته.

المبحث الثاني: تاريخ الأدب العربي

إن تاريخ الأدب العربي هو التأريخ لنشأة وتطور والعصور التاريخية التي ألمت الأدب العربي، ويتضمن أهم أعلامه من الشعراء والكتاب، كما يتناول الأغراض الأدبية كالشعر والقصة، والمسرحية والمقامة والمقال والظواهر الأدبية، كالنقائض والموشحات وأسباب الهبوط والصعود والاندثار، ويضم سيرة الشعراء وأخبار وطرائف الأدباء، ويمكن تقسيم تاريخ الأدب العربي تبعا للعصور التي توالت عليه بدءا بالعصر الجاهلي ثم العصر الإسلامي اللاحق و حتى الآن، فالشعر في الجاهلية من أقدم آدابها، لكن أكثره غنائي وحدائي، والأمثال كانت جزءا مهما من آدابها، والذين وضعوا الأدب الجاهلي هم من عرب شبه الجزيرة العربية لكنهم لم يكتبوا سوي المعلقات وكان يروي شفاهة مما كان يعرضه للاندثار والتحريف والتبديل والخلط.

العصر الجاهلي:

العصر الجاهلي أقدم العصور الأدبية ويسميه بعض الدارسين عصر ما قبل الإسلام، وهو عصر موغل في القدم، بعيد العهد في الزمن والامتداد. موطن هذا الأدب العربي القديم هو الجزيرة العربية، أو شبه جزيرة العرب، ذات الصحارى الواسعة، والبطاح الممتدة، التي تحيط بها – أو تتخللها – جبال وهضاب مختلفة، منها ما يحاذي البحر الأحمر غرباً، ومنها ما يقع في اليمن جنوباً، فضلاً عن هضبة نجد التي ترتفع ممتدة في وسط الشمال، لتضم سلسلة أخرى من الجبال، وهذه المناطق جميعاً كانت في العصر الجاهلي ميادين لحروب وغزوات، ولأحداث سياسية، وظواهر اجتماعية وتجارية واقتصادية، وأثرت في الأدب الجاهلي، شعره ونثره.

الشعر الجاهلي

ومهما يكن من أمر، فقد ورثنا عن تلك الحقبة الجاهلية أدباً ناضجاً في لغته وشعره ونثره، ولكن هذا الأدب الذي وصل إلينا لا يشمل الحقبة كلها، قبل الإسلام، ذلك أننا لا نملك نصوصاً مدونة عن مبدأ الشعر عند العرب، وعن تطوره حتى بلوغه المرحلة التي كان عليها عند ظهور الإسلام. والمعروف أن أقدم ما وصل إليه علمنا من ذلك الشعر لا يرقى عهده إلى أكثر من قرنين عن الهجرة. وقد أشار الجاحظ إلى قضية قدم الشعر العربي فقال: وأما الشعر فحديث الميلاد، صغير السن.. فإذا استظهرنا الشعر وجدنا له – إلى أن جاء الإسلام – خمسين ومئة عام، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمئتي عام.

ومن أقدم الشعراء الذين عرفنا أخبارهم ووصلتنا أشعارهم امرؤ القيس بن حجر الكندي، الذي يقال إنه أول من وقف بالديار واستوقف وبكى واستبكى، لكنه هو نفسه يذكر شاعراً آخر أقدم منه، بكى الأطلال قبله، وهو ابن خذام، فيقول:

عوجا على الطلل المحيل، لعلنا نبكي الديار كما بكى ابن خذام

ولم يكن بنو كلب بدعا في القبائل، فكل قبيلة ادعت لشاعرها أنه الأول أو الأقدم: فامرؤ القيس في اليمانية، وعبيد بن الأبرص في بني أسد، ومهلهل بن ربيعة في تغلب، وعمرو بن قميئة والمرقش الأكبر في بكر، وأبو دواد في بني إياد. وهؤلاء جميعاً متقاربون في الزمن، ولم يعثر العلماء على شعر قديم مدون بقلم جاهلي، وكل ما يعرف من هذا الشعر مستمد من أفواه الرواة الذين كانوا يتناقلون الأشعار الجاهلية عن طريق الرواية والحفظ. وتعود أسباب ذلك إلى انتشار الأمية عند العرب، وقلة وسائل التدوين والكتابة لديهم، إذ اقتصر على الحجارة الرقيقة، والجلود، والعظام، وسعف النخيل، وما إليها، ومن ثم كان المعلمون قلة بينهم.

وفي بعض الأشعار الجاهلية إشارات إلى وجود الكتابة ونقوشها، وهي ترد في مطاوي وصف الشعراء للأطلال والرسوم الدارسة، كقول الأخنس بن شهاب التغلبي، مشبها أطلال المحبوبة بالكتابة على الجلد الرقيق:

لابنةِ حطّان بـن عوف منــازل كما رقش العنوان في الرق كاتبه

على أن استعمال الكتابة يقتصر على شؤون من الحياة الاجتماعية والتجارية وما إليها، مما يكون ميدانه النثر، من دون الاتكاء عليها في كتابة الشعر؛ لأن العرب كانوا يعتمدون في حفظ الأشعار على الرواية الشفوية، حتى في خطبهم ووصاياهم وأمثالهم، يسعفهم في هذا الحفظ ذاكرة قوية تأنس بموسيقى الشعر وأوزانه، خاصة، واعتادت ذلك حتى صارت سجية من سجاياهم، وطبيعة متأصلة فيهم، فضلاً عن حبهم للشعر وعنايتهم الفائقة بروايته وتناقله، لأنه ديوان مناقبهم، وسجل حياتهم وانتصاراتهم، ولم يكن لهم – كما يقول ابن رشيق – علم أصح منه. فلا غرو أن يكون دعامة السّامرعندهم، ومدارَ حلقات القوم لديهم، في مواسمهم وندواتهم، وقد أدى ذلك أيضاً إلى ظهور حلقات من الشعراء الرواة، الذين يأخذ بعضهم عن بعض، مما يمكن أن يسمى اليوم بالمدارس الشعرية، وأشهرها تلك التي تبدأ بأوس بن حجر، وعنه أخذ الشعر ورواه زهير ابن أبي سلمى. ولزهير راويتان: ابنه كعب، والحطيئة، وكان هدبة بن الخشرم راوية الحطيئة، وعن هدبة تلقن الشعر ورواه جميل بن معمر، صاحب بثينة، وراوية جميل هو كثير عزة، الذي يُعد آخر من اجتمع له الشعر والرواية.

و«لما جاء الإسلام شغل العرب والمسلمون عن الشعر بالغزو والفتوح، ولما اطمأنوا بالأمصار، واستقرت دولتهم، راجعوا رواية الشعر – كما يقول ابن سلام – فلم يؤولوا إلى ديوان مدون، ولا كتاب مكتوب. وألفوا

ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل، فحفظوا أقل ذلك، وذهب عليهم منه كثير».

ومع ذلك، فقد نشطت رواية الشعر في القرن الهجري الأول، لأسباب مختلفة، ولازمها بعد قليل نشاط حركة التدوين عامة، ونشأت طبقة من الرواة الذين يتخذون رواية الأخبار عن الجاهلية وأيامها. وكان من نتائج ذلك وجود شعر مفتعل صنعه الرواة الوضاعون، ونسبوه إلى شعراء جاهليين، سنداً لعصبية قبلية، أو رفداً للقصص والأخبار، أو إذاعة لنزعة شعوبية، أو إرهاصاً للبعثة النبوية.

وقد عرف بالوضع من رواة الكوفة: خلف الأحمر، وحماد الراوية، كما اشتهر – إلى جانبهم – رواة ثقات من أهل البصرة والكوفة: كالمفضل الضبي، والخليل بن أحمد الفراهيدي، وأبي عمرو بن العلاء، والفراء، وابن سلام، وغيرهم، ميزوا الشعر الصحيح من الشعر الزائف، وكان في مقدمة هؤلاء ابن سلام الجمحي الذي عالج هذا الموضوع مفصلاً في طبقاته، ومما قاله: وليس يشكل على أهل العلم زيادة الرواة، ولا ما وضعوا، ولا ما وضع المولدون. كما أن في كتاب «الأغاني» إشارات كثيرة إلى أشعار منحولة، وأخبار موضوعة، نص عليها أبو الفرج بعد أن تفحص رواياتها، ورجع إلى دواوين الشعراء أنفسهم.

ومع كل هذه الجهود، وغيرها، التي حرص أصحابها على تنقية الشعر القديم من الشوائب الزائفة، وإيصاله إلينا صحيحاً موثقاً، قام في العصر الحديث لفيف من المستشرقين والدارسين العرب يثيرون قضية النحل والانتحال في الشعر الجاهلي، ويشككون في صحة هذا الشعر، على تفاوت فيما بينهم، شططاً وتحاملاً، أو اعتدالاً وحيادا، وبلغ الأمر ذروته عند المستشرق الإنكليزي مرغليوث Margoliouth الذي نشر سنة ١٩٢٥م مقالة له بعنوان «أصول الشعر العربي» أنكر فيها صحة الشعر الجاهلي جملة،

وأقام مذهبه هذا على مزاعم وتصورات متناقضة، جعلت بعض المستشرقين أنفسهم يردون عليه ويفندون آراءه، ومنهم جيمس لايل Lyalle ناشر المفضليات.

وفي مصر قام طه حسين يحذو حذو مرگليوث، حين نشر سنة ١٩٢٦ كتابه «في الشعر الجاهلي» وضمنه آراء جريئة جعلت بعض العلماء والنقاد يردون عليه: كالرافعي، ومحمد فريد وجدي، ومحمد الخضري، ومحمد لطفي جمعة، ومحمد الخضر حسين.

وأدى ذلك إلى أن يعيد طه حسين النظر في كتابه، تعديلاً وحذفاً وزيادة، ويصدره في العام التالي ١٩٢٧ بعنوان آخر: «في الأدب الجاهلي» بعد أن ضم إليه بحث النثر الجاهلي، وأفاض في شرح نظريته وتطبيقاتها، ووقف عند أسباب الوضع والنحل في الشعر العربي، كما أوضح أسباب الشك في الشعر الجاهلي، ودوافعه، ولخص ذلك بقوله: «إن الكثرة المطلقة – مما نسميه أدباً جاهلياً – ليست من الجاهلية في شيء، وإنما هي منحولة بعد ظهور الإسلام، فهي إسلامية تمثل حياة المسلمين وميولهم وأهواءهم، أكثر مما تمثل حياة الجاهليين».

ولم يسلم – مع ذلك – كتاب طه حسين الثاني من النقد والتفنيد. ومرت السنوات بعد ذلك، ولم يكتب لنظرية طه حسين وأمثاله القبول التام، وإن أيقظت الأذهان، ولفتت الأنظار إلى ضرورة التثبت من صحة الشعر الجاهلي، بل صحة كل شعر، قبل روايته أو الاستشهاد به.

ويضاف إلى ذلك ظهور كتب ودراسات جديدة زادت من توثيق الشعر الجاهلي وتصحيح ما صحّ منه، ونوّهت بكثير من مصادره الأصلية، وفي مقدمة هذه الكتب كتاب «مصادر الشعر الجاهلي» لناصر الدين الأسد. وقد وجد الباحثون المعاصرون بين أيديهم عدداً من مصادر الشعر الجاهلي التي جاءت عن طريق الرواة الأمناء الصادقين، الذين وقفوا جهودهم على

التحري والتثبت، ولم يخف عليهم وجود شعر جاهلي منحول كشفوا جانباً منه، ولقد حازت آثار أولئك الرواة القبول والتقدير، وعُدّت مصادر أساسية للشعر الجاهلي، وأهم هذه الآثار:

. دواوين الشعراء القدماء، التي جمعت في عصر التدوين: كزهير، والنابغة، وامرئ القيس.

. دواوين القبائل العربية: كديوان الهذليين، الذي لم يصل إلينا كاملاً.

. المجموعات الشعرية الموثوق بها: كالمعلقات وشروحها، والمفضليات، والأصمعيات، والنقائض وشروحها، والحماسات.

. كتب الأدب، واللغة، والنحو: كالبيان والتبيين، والحيوان، ومجالس ثعلب، وعيون الأخبار، والكامل، والأمالي، وكذلك بعض كتب المتأخرين التي احتفظت بكثير من الأشعار الجاهلية التي ضاعت أصولها: كخزانات الأدب، وشرح أبيات مغني اللبيب، وكلاهما للبغدادي، وشرح شواهد المغني للسيوطي.

. الكتب النقدية البلاغية: كالموشح، والصناعتين، والموازنة والوساطة.

. كتب التراجم والطبقات: كمعجم الشعراء، والمؤتلف والمختلف، وطبقات ابن سلاّم، والشعر والشعراء، والأغاني.

فهذه المصادر وأمثالها، تجعل بين أيدينا مادة وافرة للشعر الجاهلي، وهذه المادة غنية وكافية، لكي تهيئ للدارسين مجالاً واسعاً للبحث والتحليل والموازنة، في رحاب أغراض ذلك الشعر وفنونه المختلفة.

فنون الشعر الجاهلي وأغراضه

هذا الشعر، الذي قيل فيه إنه ديوان العرب، يعد صورة للبيئة التي نشأ فيها أصحابه قبل الإسلام في كثير من جوانبها الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، والمعرفية، والدينية، كما يعكس ذلك الشعر طائفة من الجوانب

النفسية، والمثل الأخلاقية للعرب، من شجاعة وفروسية وفتوة، ومن إكرام للضيف وإغاثة للصَّريخ وغير ذلك.

ومن ثم تعددت أغراض الشعر الجاهلي وفنونه، فكان فيه غزل، ومدح، كما كان فيه فخر، ورثاء، وهجاء، فضلاً عن الحكمة والوصف.

ووجود هذه الفنون والأغراض في الشعر الجاهلي، لا يعني أن القصيدة منه كانت خالصة دائماً لموضوع واحد، وأغراض لا تحيد عنه، فقد تضم غرضين أو أكثر، ولكنها تنسب إلى ما نظمت من أجله، هجاء، أو مدحاً، أو فخراً، وإن تخللتها موضوعات جانبية أخرى.

وأما أشهر الأغراض والفنون في الشعر الجاهلي فهي.

الغزل:

يكاد الغزل يفوز بالنصيب الأوفى بين سائر الأغراض الأخرى، على تفاوت حظوظ الشعراء الجاهليين منه، ذلك أنه أعلق الفنون الشعرية بالأفئدة، وأقربها إلى النفوس، لما للمرأة من آثار عميقة في حياة الرجل، وتغذية عواطفه وأحاسيسه، ومرافقته في حله وترحاله، وفي حربه وسلمه، وزيارته لأحبته وذوي قرباه، ووقوفه على أطلالهم بعد الرحيل والفراق، وفي موضوع الغزل، تتردد عند النقاد والدارسين، من قدماء ومعاصرين، أربعة ألفاظ تتقارب في مفهومها، وتتشابك في دلالاتها، وهي: الغزل، والتغزل، والنسيب، والتشبيب. وقد حاول بعضهم أن يبين الفروق المعنوية بينها، ولكنهم لم يصلوا إلى القول الفصل في ذلك.

ومن أبرز سمات الغزل عند الجاهليين، ظاهرة التعلق بالمرأة والسعي إلى مودتها، ووصف مفاتنها الجسدية، وإمام الشعراء في ذلك هو امرؤ القيس، الذي قضى شبابه في اللهو والشراب، وأصاب من الغزل والمرأة ما

جعله السابق المجلّي في هذا المضمار، وأشعاره، ولاسيما معلقته، صُوَرٌ وحكايات لما كان بينه وبين النساء.

وكذلك ثمة جانب من هذا المذهب الحسي، في الحديث إلى المرأة وفي وصفها عند شعراء آخرين كالأعشى والنابغة الذبياني. ويمكن الخروج من قراءة أشعارهم الغزلية إلى جملة من المقاييس التي كانوا يعتدون بها في تقويم الجمال، والمفاتن الجسدية: فالمرأة تشبه بالدرة الصدفية حيناً، والدمية المرمرية حيناً آخر، وأصابعها لينة كالعَنَم، ولونها المفضل هو البياض، وخصرها ضامر نحيل، بخلاف ردفها الذي يستحسن أن يكون ثقيلاً مكتنزاً وساقيها اللتين يستحب أن تكونا ممتلئتين، والشعر طويل فاحم، والأسنان بيضاء نقية، والمشية هينة مترسلة.

وقد ينصرف الشاعر في غزله إلى التغني بفضائل المرأة وذكر مناقبها وكريم سجاياها، وعفتها، ولا سيما عند وقوفه على الأطلال توخياً لتهيئة الأذهان وشد الأسماع قبل الوصول إلى غرضه الأساسي.

أما تصوير الشاعر الغزِل لما يقاسيه من تباريح الصبابة، وما يعانيه من عذاب مقيم، وآلام مبرحة، وهيام طاغ، فهذا كله منبث في أشعار المتيمين من الجاهليين الذين قضوا حياتهم يعانون ألم النوى، ويقضون الليل ساهرين أرقين ويشكون من تجني المحبوبة، حتى تنحدر دموعهم، وتتقرح أكبادهم.

والشعراء، الذين سلكوا هذا المذهب، معظمهم من العشاق الذين عرفوا بالعفة والبعد عن الأوصاف الحسية للجسد، ومعاناة الأشواق اللاذعة، ويمكن أن يعد غزلهم النواة الأولى للغزل العذري الذي عرف في العصر الأموي، ذلك أن كل واحد منهم اقترن اسمه بصاحبته التي اشتهر بها، ومنهم عنترة صاحب عبلة، ومثلا المخبَّل السَّعدي ومَيْلاء، وعبد الله بن العَجْلان وهند، وغيرهم.

المديح:

كانت للناس في العصر الجاهلي مثل عليا، ومعايير خلقية تعارفوا عليها، وورثوها عن أجدادهم، كالشجاعة والكرم، وحماية الجار، وإغاثة الملهوف وعراقة النسب، وجاء شعر المديح ليشهد بهذه السجايا وما هو منها بسبب: كالعقل، والعفة، والعدل، والرأي السديد، وقد يستدعي المقام والمناسبة ذكر مناقب أخرى تأتي في ساعتها: من جميل يؤثر، وصنيع يقدم، وأسير يطلق سراحه، فيكون الاعتراف بذلك الجميل، والشكر لذاك الصنيع.

وهكذا قام المديح مقام السجل الشعري في رسمه لنواح كثيرة من حياة الأعلام، ملوكاً، وسادة، وأجواداً، وبذلك أغنى التاريخ وكان رديفاً له ومتمماً، وإن كان يمتزج غالباً بالإسراف والمبالغة، ويختلط فيه الواقع بالخيال، والعقل بالعاطفة والحق بالباطل، ولذلك ينبغي أن يقف الباحث من شعر المدح موقف الحذر والنقد والتمحيص، وألا يأخذه على أنه صدق لا كذب فيه، أو حقيقة لا يشوبها الشك.

وقد سلك الشعراء المدَّاحون في العصر الجاهلي طريقين، أحدهما أو كليهما، **الأول** هو طريق التكسب والاحتراف، وميدانه قصور الملوك، ومجالس الأمراء، وأفنية الأشراف والأعيان، وقد انحرف الشعر إلى هذا الميدان على يد النابغة الذبياني، الذي سن للشعراء سنة المديح الرسمي – في تنقله بين قصور المناذرة والغساسنة – ومدح ملوكهم، كما سخر شعره لكل من يجود عليه أو يرعاه في كنفه، وكان هذا أول الاحتراف في المديح والتكسب به. وقد حظي النعمان بن المنذر بنصيب وافر من ذلك.

وجاء الأعشى ليسير على سنن النابغة في المديح، بل إنه أسرف في المسألة والتكسب، فأصبح يمدح كل من أعطى، ويشكر بشعره كلَّ من أكرم، حتى يخرج عن حدود التصديق، كما في مديحه للأسود بن المنذر اللخمي – شقيق ملك الحيرة – ولهوذة الحنفي.

ومن هؤلاء الشعراء المتكسبين أيضا: حسان ابن ثابت، والمسيب بن علس، والمنخل اليشكري، والممزق العبدي، والحارث بن ظالم، وعلباء بن أرقم.

أما **الطريق الثاني:** فهو طريق الإعجاب والشعور الصادق. والشعر هنا يصدر – فيما يقول – عن حب عميق، وإحساس نقي، لا تملق فيهما ولا تزلف. وحامل لواء هذا الشعر هو زهير ابن أبي سلمى، الذي سخر شعره لكل من قام بإصلاح ذات البين، أو صنع مأثرة كريمة، نائياً بأشعاره المدحية عن المبالغة والشطط.

ومن ممدوحيه: هرم بن سنان، والحارث بن عوف، اللذان أصلحا بين عبس وذبيان، في حرب داحس والغبراء، وبذلا من أموالهما ديات القتلى حقناً للدماء، ونشراً للسلام بين المتحاربين.

الفخر:

وهذا فن شعري تربطه بالمدح صلات وشيجة، فالمعاني التي تتردد في المدح، هي نفسها مما يتغنى به الشعراء مفتخرين. ذلك أن الحياة العربية في العصر الجاهلي قامت على مواجهة المخاطر، والمزاحمة على الماء والكلأ، والشجاعة في القتال، وما يتصل من ذلك كله بسبب: كالتغني بالبطولات وشن الغارات، وتمجيد الانتصارات، وكثرة العدد والعدة، ومنازلة الأقران، ونجدة الصريخ، والحفاظ على الشرف والجار، وهذه الأمور جميعاً أذكت قرائح الشعراء، ووفرت لهم أسباب التفاخر والتباهي، منفردين ومجتمعين، فانطلقت ألسنتهم بأشعار زاخرة بالعاطفة القوية، والانفعال العميق، تبرز فيها الحقائق التاريخية مجلببة بجلباب الخيال والمغالاة.

وهذا الفخر يكون قبلياً تارة تسيطر عليه روح حماسية جارفة، وهذا شأنه دائماً في مواطن الكر والفر، والأخذ بالثأر وتضييق الخناق على

الأعداء، واستطابة الموت عند الحرب، إذ ينطوي شعر الفخر على دفقات قوية من الحماسة، ويكون من ذلك مزيج متلازم، ومن خير ما يمثل هذا الفخر القبلي الحماسي معلقة عمر بن كلثوم التغلبي، التي سجل فيها انتصارات قبيلته، ومنعتها، وما يتحلى به أفرادها من شجاعة وإقدام، وسطوة وهيبة وأنفة وإباء.

وهذه الحماسة المزهوة لا تحول دون إنصاف الشاعر لأعدائه، والإقرار بقوتهم وشجاعتهم، وعرفت في الشعر الجاهلي قصائد من هذا القبيل سميت «المنصفات» ومن أصحابها: العباس ابن مرداس، وعوف بن الأحوص، وخداش بن زهير.

ويكون الفخر تارة أخرى ذاتياً ينبعث من نفوس تهوى العزة والمجد، وتحرص على بناء المكارم، والتباهي بمآثرها الفردية، ويبدو هذا الفخر الذاتي لدى طائفة من الشعراء الفرسان والأجواد، كعنترة، وحاتم الطائي، وعمرو بن الإطنابة، والشعراء الصعاليك كالشنفرى، وتأبط شراً، وهنا يحلو للشاعر أن يتحدث عن نفسه وخصاله، وعراقة أصله، وطيب منبته، ومايتحلى به من كرم ومروءة وحماية للجار، وغير ذلك من الفضائل الخلقية. وفي معلقات طرفة بن العبد، ولبيد بن ربيعة، وعنترة بن شداد، صور كثيرة من هذا الفخر الفردي، تتلاقى على صعيد واحد، وقد وشحها أولئك الشعراء بذكر القصف واللهو، والفخر بشرب الخمرة في معرض الحديث عن الكرم والإكرام.

الرثاء:

يلتقي الرثاء والمديح في أنهما كليهما إشادة بالمرء وإعلاء شأنه، لكن الأول إشادة بالميت وخصاله، والثاني إشادة بالحي وتمديد لمآثره وسجاياه. ويمتاز الرثاء أيضاً بأنه فن شعري ثابت المعاني والهدف، لأنه يعبر في معظم أحواله عن انفعال وجداني، وشعور عميق بالحزن والألم، حين تفقد

الأسرة أو القبيلة، عزيزاً فيغمرهم الحزن وتتحرك الشاعرية لتعبر عن الأسى المشترك، والخسارة الفادحة والمجد الذي انهد ركنه، والشمائل التي حكم بها الموت للقبر والتراب. وقد يصحب تعداد شمائل الميت، والبكاء عليه، أخذ بأسباب العزاء فيه، ودعوة إلى الصبر على حدثان الدهر، والتأسي بمن طوتهم المنون من قبل، لأن الدنيا دار فراق وزوال، لا دار خلود وبقاء، وليس أمام الإنسان سوى الاستسلام للأقدار، والقبول بالقضاء.

هذه المعاني والأفكار، في جملتها تتردد في أشعار الرثاء عند الجاهليين، وقد يطغى جانب منها في القصيدة على آخر، أو تتفرع عنها معان جزئية، ولكن تظل المناحي الأساسية بارزة في تلك الأشعار، وإذا كان المرثي ذا منزلة رفيعة لجأ الشاعر إلى المبالغة وتهويل الخطب وإشراك الطبيعة في استعظام المصاب.

وقد اشتهر عدد من الشعراء أجادوا الرثاء في العصر الجاهلي، منهم: المهلهل بن ربيعة، ودريد بن الصمة، وأعشى باهلة، ولبيد، وطفيل الغنوي، وأوس بن حجر، وأبو دواد الإيادي. كما عرف كثير من النساء بإجادة هذا الفن الشعري والنبوغ فيه، كالخنساء، وجليلة زوجة كليب، وسعدى بنت الشمردل. والرثاء عند هؤلاء الشعراء والشواعر، منه ما يكون في الأقرباء الأدنين: كما في رثاء المهلهل لأخيه كليب، والخنساء لأخويها صخر ومعاوية، ولبيد لأخيه أربد. ومنه ما يكون في أناس آخرين، من ذوي المكانة والشأن في قبيلة الشاعر، أو في غيرها من القبائل، ممن تقربهم إلى الشاعر صلات وثيقة. ومن ذلك قصيدة أوس بن حجر، التي رثى فيها فضالة الأسدي، وتعد من عيون المراثي في العصر الجاهلي: ومطلعها:

أيتها النفس أجملي جزعا إن الذي تحذرين قد وقعا

وقصيدة أبي دواد الإيادي، التي رثى فيها من طواهم الردى من شباب قبيلته وكهولها، وذكر ما لهم من صفات ومفاخر ومجد، وأشاد بما كان لهم من

بأس وسخاء في أوقات الشدة والجدب، وما تحلوا به من عقول راجحة وآراء سديدة. وأول هذه القصيدة:

منــع النــوم، مــاوي، التهمام وجـدير بالهـم من لا ينــام

والرثاء عند الجاهليين يكثر فيه ترداد ألفاظ معينة، كالجملة الدعائية: «لا تبعد» أو «لا تبعدن» كما يكثر الدعاء بالسقيا لقبر الميت: «سقيا لقبرك» «سقاك الغيث» وذلك ليبقى ما حول القبر خصباً ممرعا.

الهجاء:

حظ هذا الفن في الشعر الجاهلي قليل؛ إذا قيس إلى الفخر أو الغزل مثلاً؛ ولكن أثره كبير في النفوس، ووقعه أليم في الأفئدة، لأنه يقوم على إذلال المهجو، وتجريده من الفضائل والمثل التي يفتخر بها القوم، أو التي بها يمدحون، ومن ثم الفخر، والمدح، والهجاء، تجمع ثلاثتها جملة من الفضائل وأضدادها، فالكرم، مثلاً، فضيلة لديهم، وفي مقابله تكون نقيصة البخل والشح، والشجاعة ضدّها الجُبن. وهكذا.

وعلى هذا، فإن الهجاء في الشعر الجاهلي هو انتقاص للخصم، وتعيير له بجملة من المخازي والمساوئ التي يستهجنها مجتمعه، فمنها ما هو في مجال الحروب والغزوات التي حفلت بها حياتهم: كالجبن، والفرار عند اللقاء، والوقوع في الأسر، ودفع الفدية، ومنها ما هو في حيز العلاقات الاجتماعية، والنقائص النفسية: كالبخل، والاعتداء على الجار، واللؤم، والغدر، والقعود عن المكارم، وما يتفرع عن ذلك كله من المعايب والسقطات التي يعدها العربي عارا يبرأ منه، أو يحذر الوقوع فيه، لئلا يصيب منه الشاعر مقتلاً. فضلاً عما تحرص عليه القبيلة في أفرادها كافة من كرم الأحساب، ونقاء الأنساب، لئلا تتحطم سمعتهم، أو ينهار بناء أحسابهم وأنسابهم، فيكونوا نصبا للهجاء.

والهجاء عندهم على ضربين: هجاء فردي، وآخر جماعي يتجه إلى القبيلة نفسها وقد يجمع الشاعر بينهما، وهجاء الجاهليين عامة يسلك مسلك الجد. ولا يدخله الإفحاش ولا الشتيمة الصريحة، ولكن ربما داخله شيء من السخرية والتعريض والتلميح الموجع، بدلاً من الهجاء المباشر.

الحكمة:

الحكمة قديمة في أشعار الجاهليين، لأننا نعثر عليها عند أوائلهم، كامرئ القيس وعبيد بن الأبرص، كما حفلت بها قصائد الشعراء الآخرين على مر السنين. وحكمهم مستمدة من بيئتهم التي عاشوا في كنفها، حرباً وسلماً، وعلاقات وعادات، وأخلاقا وسجايا...وهذه الحكم صدى لصفاء الفطرة، ودقة الإحساس، وغنى التجارب، والقدرة على استخلاص العبرة من الحوادث، ولا تخلو، في الوقت نفسه، من قيمة تاريخية، ودلالة اجتماعية، ونواح أخلاقية، وفلسفة عملية تختلف من زمن إلى زمن، ومن إنسان إلى آخر، لأنها تعبر عن آراء أصحابها، ومواقفهم من الحياة والناس، وتفكيرهم في تقلبات الأيام، وتحمل في طياتها نظرات ثاقبة، وبصيرة واعية، إزاء قضايا الناس والحياة، ويسوقها الشاعر في مطاوي القصيدة أو في نهايتها، وتعد المعلقات أوضح الأمثلة للقصائد التي تحفل بالحكم، على تنوع موضوعاتها وأغراضها، كمعلقة زهير، التي أرسل فيها نحو العشرين بيتاً، وبدا في سردها هادئ النفس، رصين التأمل، واقعي التناول لقضايا الحرب والسلم، والحياة والموت، وخفايا النفس الإنسانية.

وأما طرفة، الشاعر الشاب، فإن حكمه في معلقته تنبع من شخصيته العابثة، التي تريد أن تستبق اللذات قبل أن يفاجئها الموت، لأن الحياة أشبه بكنز يتناقص شيئاً فشيئاً، والموت سيأتي على كل حي، ولا راد لما يأخذ.

وتنبث الحِكم في قصائد الشعراء الآخرين: كلبيد، وعبيد بن الأبرص، وحاتم الطائي، وأوس ابن حجر وعلقمة بن عبدة، والأفوه الأودي. وانفرد منهم أمية بن الصلت بالإكثار من الحكم التي تعتمد على أخبار الأديان والأمم الغابرة، وقراءة الكتب، ولذلك اجتمعت فيها روافد التجربة والثقافة معاً. وكان طابعها دينياً ممزوجاً بالكلام على زوال الحياة وتحكم حوادث الدهر في الناس.

الوصف:

الوصف يغلب على أبواب الشعر جميعا، فهو باب واسع، يشمل كل ما يقع تحت الحواس من ظواهر طبيعية، حية وصامتة. وهكذا كان عند شعراء العصر الجاهلي الذين عايشوا الصحراء في حلهم وترحالهم، وألفوا القفار الموحشة، وما فيها من جبال ووديان ومياه وحيوانات أليفة وغير أليفة، فوصفوا ذلك كله لأنه وثيق الصلة بحياتهم وتقلباتهم.

وكانت الناقة صاحبة الشاعر في جوبه لتلك الفيافي والمفاوز، وعليها اعتماده في كثير من أحواله، لذلك أكثر فيها القول، وافتن في وصف أجزاء جسمها، وصور كل أحوالها في سيرها وسرعتها، وصبرها على مشاق السفر، حتى كادت الناقة تستأثر بنصيب وافر في طول القصائد التي نظمها أصحاب المعلقات وغيرهم، كبشامة بن الغدير، والمثقب العبدي، والمسيب بن علس، وأوس بن حجر، وغيرهم.

والفرس هو الحيوان الثاني الذي يرافق الشاعر الجاهلي، ويقاسمه العيش، ويتحمل معه التعب والعناء، والسير والسرى، ولاسيما في خروجه إلى الصيد، وخوضه الحروب، وقد عني العرب بالخيول الأصيلة، واتخذوا لها أسماء خاصة، وحفظوا أنسابها أيضاً، فلا غرابة أن يصفها شعراؤهم في قصائدهم، ولكل واحد من هؤلاء الشعراء طريقته الخاصة في وصف فرسه، سواء أكان ذلك في مجال الصيد واللهو، كامرئ القيس، أم كان في ميادين

الحرب والقتال: كعنترة والمزرَّد، أم كان وصفاً عاماً للفرس، على أنه مجلى النظر وموضع الفخر، كما هو الشأن عند طفيل الغنوي وأبي دواد.

ولم يكتف الشعراء بوصف الناقة والفرس، وإنما وصفوا ضروب الحيوان الأخرى في بيئتهم ولاسيما الثور الوحشي، والبقرة الوحشية، وجعلوا وصفهم لهذين الحيوانين ذريعة إلى وصف الناقة بالسرعة والخفة عن طريق تشبيهها بأحدهما، وتخيل معركة ضارية بين الثور، أو البقرة من جهة، وكلاب الصيد من جهة أخرى. وتنتهي هذه المعركة غالباً بنجاة الحيوان الوحشي، وتغلبه على الكلاب، أو طعنه أحدها بقرنه.

كما يرد في قصائد الشعراء أوصاف لحيوانات أخرى: كالهر، والديك، والحية، والذئب،والنعامة، والغراب. وهذه الأوصاف كلها تأتي في ثنايا القصائد الطويلة، أما مطالع تلك القصائد فقد استأثر بها وصف الأطلال والرسوم الدارسة، التي تؤلف ركناً قوياً ثابتا في أول القصيدة الطويلة، كالمعلقات وغيرها، إذ يقف الشاعر على تلك الأطلال ويصفها ويناجيها، ويذكر ما فعلته فيها الرياح والأمطار مشبهاً إياها بآثار الكتابة أو الوشم.

وكذلك وصف الشعراء الجاهليون مظاهر الطبيعة حولهم كالليل، والسحاب، والرعد، والبرق،ووصفوا كذلك الخمر ومجالس الشرب واللهو والحرب وأسلحتها المختلفة. وهذا كله يدل على عناية أولئك الشعراء وغيرهم بوصف كل ما يحيط بهم وصفاً دقيقاً، في بساطة وجمال، وصدق في التعبير عن المشاعر والإحساسات، وتعاطف مع الحيوان عامة، بوساوسه وحذره وجرأته، معتمدين على القالب القصصي في كثير من الأحيان، وعلى التشبيه وسيلة للأداء والتصوير.

النثر الجاهلي:

بنى العرب مجدهم الأدبي، في العصر الجاهلي، على الشعر، ومع أن الكتابة كانت معروفة لهم – فإن ما وصل إلينا من نثرهم قليل جداً. وكانت الكتابة تقتصر على جوانب تتصل بحياتهم السياسية والاجتماعية والتجارية، من رسائل، وعقود ووصايا ومواثيق، وفي القرآن الكريم إشارات إلى كتابة الديون، وحديث عن رحلتي قريش.. ومثل هذه الرحلات التجارية تستدعي الكتابة والتسجيل.

وليس المراد بالنثر الجاهلي هنا ذلك النثر العادي الذي يتخاطب به الناس، وإنما المراد به النثر الأدبي أو الفني الذي يعنى صاحبه بتجويده، وإتقانه لينال إعجاب القارئ، من حكمة تقال، أو قصة تروى، أو مثل يضرب، أو خطبة تلقى، أو رسالة تدبَّج، أو وصية بليغة تنقل.

مثل هذا النثر الفني قليل الوجود بين أيدينا بلفظه الأصلي الذي صدر عن أصحابه لأن حفظ النثر أصعب من حفظ الشعر، لكن الذاكرة الأدبية للرواة اكتسبت على مر العصور أصالة ومراناً، مما أتاح لهم أن يحتفظوا بنصوص من ذلك النثر، في صورتها الأصلية، وبأخرى ليست موافقة لأصلها كل الموافقة، ولكنها صورة قريبة منه، يمكن من خلالها تحديد خصائصه الفكرية والفنية. وهذه النصوص النثرية الجاهلية، الأصلية والقريبة من الأصل، وردت في طائفة من المصادر الأدبية والتاريخية القديمة. وكان في تلك النصوص فنون أدبية نثرية، تأتي في مقدمتها: الخطابة – ويلحق بها المنافرات، وسجع الكهان – ثم الحكم والأمثال – ويلحق بها الوصايا والنصائح – ثم القصص، فالرسائل.

أهم شعراء العصر الجاهلي:

امرؤ القيس:

نسبه:

الملك الضليل، أبو الحارث جندح بن حجر، الكندي، شاعر يماني، حامل لواء الشعر في الجاهلية، أبوه ملك كندة، وقد عاش امرؤ القيس يسكر ويلهو ويقامر وينادم ويلحق بالنساء ويتشبب بهم، فغضب لذلك أبوه وركب الفتى رأسه، وانصرف إلى الملذات حتى قُتِل أبوه لعسفه في حكمه وإرهاقه الرعية وقسوته في الجباية، فهب امرؤ القيس من سكرته عندما أُلقيَت التبعة عليه وصار مسؤولًا عن دم أبيه، فاستنجد قبائل العرب فلم ينجده إلا قليل منهم، فقاتل بني أسد قتلةَ أبيه، فأنجدهم المنذر أحد ملوك الحيرة وناهض امرأ القيس لعداوة قديمة بينه وبين الحارث جد امرئ القيس، فغُلب امرؤ القيس على أمره وفر من وجههم، ونزل على السموأل فأودعه دروعه وابنته وكل ما له من متاع.

ذهب امرؤ القيس إلى ملك الروم يستنصره على مناوئيه؛ شيعة المناذرة التابعين للفرس، والفرس كما نعلم أعداء الروم في جزيرة العرب، ويقال إن قيصر أنجده ثم عدل، ومنهم من ينكر ذهابه إلى قيصر الروم، وحجته أن امرأ القيس لم يصف شيئًا من مظاهر القسطنطينية، والعالِم بنكبته لا ينكر ذهابه إلى القسطنطينية لأنه لم يصفها ولم يصف إحدى كنائسها، فأظن أنه كان في شاغل عنها! وهب أننا قلنا وصفها، فكيف يصل إلينا ما قاله فيها ونحن نعلم أنه مات على الطريق، أما قولهم إنه مات بحلة مسمومة أرسلها إليه قيصر فهو ما لا أصدقه، ولا أظن إلا أنه مات بالجدري، هذا أصح تأويل لتلك القروح، وقد ثبت تاريخيًّا أن الجدري كان منتشرًا في السنة التي مات فيها، ويقولون إنه دفن في أنقره، حيث لفظ روحه.

شعره:

(١) تشبيب ووصف أيام الصبا، وذكر حوادث غرامية، شكوى وألم في المحنة، ويعذره من أنكروا وجوده؛ لأنه رقق النسيب وأجاد الاستعارة وتفنن بالتشبيه، لما تقدم من الأسباب.

(٢) تصرُّف في المعنى الواحد بطرق عديدة، وهذا تحديد البيان العربي.

(٣) وصفٌ دقيق مطابق للحقيقة والواقع.

(٤) ابتداع أسلوب جديد اتُّبع، ولا يزال بعضهم يمشي على الطريق التي شقَّها لهم.

(٥) في شعره تهتك وفحش، إلى جانب النبل والسيادة.

(٦) في بعض شعره عبارة جافية، ألفاظ خشنة، ومعانٍ قد تغرب عنك، وإلى جانب كل هذا: ديباجة حسنة، معنى بديع، رقة نسيب، سهولة مأخذ، وعلى منواله نسج الذين جاءوا بعد،. وبكلمة مختصرة: إنه زعيم الشعراء الوصافين في هذا العصر.

معلقته:

وموضوعها: ذكر الأطلال والبكاء عليها، ذكرى عنيزة ويوم دارة جلجل، وصف الليل وتشكي طوله، وصف الوادي والمطر، والوحوش والفرَس والبرق، وكاد يكون صادقًا في كل ما قال، وتفوق معلقته غيرها بما يأتي:

(١) بابتداع طريقة اتبعها بعده الشعراء، فكأنها كانت الطريق المعبدة حتى آخر العصر العباسي، ونستطيع أن نقول إن شعر النهضة الأخيرة لم يخلُ من التأثر بها.

(٢) وصف صحيح، تشابيه مبتكرة، مطابقة للواقع لم يسبق إليها ولم يلحق بها، فقلما خلا بيت من تشبيه ووصف معًا.

(٣) قوة التصرف بالمعنى الواحد، فيكون المعنى حسب المقام، فلا يمل بالإسهاب كطرفة ولبيد بوصف الناقة، ولا يخل الإيجاز.

(٤) فيها بعض ألفاظ ينفر منها السمع، وقد تجاوز حدود اللياقة والكياسة ببعض تعابير وأوصاف فكان كلامه فيها من نوع الأدب العاري.

(٥) فيها وصف خمسة أشياء: النساء، الليل، الخيل، الصيد، المطر وما يتخلله ويعقبه ...إلخ.

وبكلمة مختصرة نقول: لو قام الشعر بالوصف والتشبيه فقط لكانت خير الشعر.

طرفة بن العبد:

سيرته:

طرفة بن العبد، شاعر من قبيلة ربيعة، أقصر فحول الشعراء الجاهليين عمرًا، وأجودهم طويلة، وأوصفهم للناقة، طواه الردى في ميعة الشباب، سمَّاه المتقدمون: «ابن العشرين»؛ لأنه مات في تلك السن، أو ما يناهزها، ويُروى أنه نادمَ النعمان، ومنهم من قال عمرو بن هند، مع خاله المتلمس الشاعر، ثم توترت العلاقات بينهما لأسباب لا تهمنا معرفتها، فسلَّم النعمان كلًّا منهما رسالة إلى عامله في البحرين، فأخذا الكتابين معتقدين أن فيهما جائزة أو صلة، فإذا الأمر بالعكس؛ لأن المتلمس شك فأقرأ كتابه غلامًا من الحيرة، فإذا فيه أمر بالقتل، فألقى المتلمس كتابه في النهر وهرب إلى الشام، وعاش المتلمس بقية عمره يهجو النعمان، ويدعو العرب إلى عصيانه، أما طرفة فلم يشك، وظل سائرًا في طريقه إلى البحرين حيث قتله عامل النعمان فمات ولمَّا يتمتع بشبابه إلا قليلًا.

شعره:

على قلته قيِّم ممتع «عمومًا»، شديد الأسر متين النسج «أحيانًا»، معقد التركيب، كثير الغريب، مبهم المعنى، جيد الوصف، مع عدم تطرف

في الغلو، يدل شعره على نفسية عاتية جبارة، لا تنظر إلا إلى الساعة التي هي فيها، يرى الدنيا على حداثته بعين الحكيم المجرب.

معلقته:

وأغراضها: وصف الدار وآثارها، تغزُّل، وصف الأحباب وسفرهم، وصف الناقة، افتخار بالنفس، زهد بالحياة، يأس منها، حكم، ومميزاتها: متينة اللفظ والأسلوب، يكثر فيها الغريب في مواضع وتسهل في مواضع، غزيرة المعنى، دقيقة الوضع والوصف إلى حد الإسهاب الممل، هي من أجود المعلقات السبع، تمثل حياة صاحبها الخاصة ونفسيته، والمثل الأعلى في الحياة الجاهلية، وهذا مكتسب من المحيط وتقاليده، وقد أسهب في وصف ناقته، فأغرب في الألفاظ والمعاني لاضطراره إلى ألفاظ وضعية، وأهم ما يلفت النظر في معلقته، نظره إلى الحياة ويأسه منها، ومعرفته أنه فانٍ، فلماذا لا يتلذذ في حياته ويقابل منيَّته بكل ما يملك، ثم يعلن رغبته في الحياة لثلاثة أسباب هي لذاته الثلاث: الحب والشرب والحرب.

زهير بن أبي سلمي:

نسبه:

زهير بن أبي سلمى المزني، نشأ في غطفان، وإن كان نسبه في مزينة، فهو شاعر قيسي مضري، جلُّ أهل بيته شعراء، رجالًا ونساء، أخذ الشعر والحكمة عن خال أبيه بشامة بن الغدير أحد أشراف غطفان.

كان خال أبيه بشامة هذا مقعدًا فلزمه زهير فتخلَّق بأخلاقه، وكان زهير حكيمًا طيب النفس، مؤثرًا للخير، محبًّا للسلم داعيًا إليه، ولو كانت جائزة نوبل للسلم في زمانه لأخذها واستراح من تعب الفكر، وقد كان شعره عفيف القول، وجيز اللفظ، غزير الحكمة، تهذيب كثير، لا تعقيد ولا حشو، مدح صادق، لا سخف ولا هذر في كلامه، شديد الاعتماد على الحواس في

إخراج صوره الشعرية، برز في الحكمة العامة والأمثال، وقد يكون شق الطريق لمن جاءوا بعده وقالوا الحكمة في شعرهم، وقد قال زهير معظم شعره في مدح هرم بن سنان، وهو سيد غني توسط مع الحارث بن عوف في الإصلاح بين قبيلتي عبس وذبيان في حرب «داحس والغبراء»، ودفعا ديات القتلى من مالهما، وقد بلغت ٣٠٠٠ بعير.

معلقته:

وموضوعها: ذكر الديار، وصف رحيل الأحباب، وصف الحرب وشؤمها، ذكر حزنه، مدح هرم والحارث، وصف زهده في الحياة وسآمته، حكم عامة، وهى متينة الألفاظ والتعبير، أكثر أبياتها صور محسوسة، اعتمد عليها ليصل إلى غايته وهي المدح، ولذلك لم يبحث في معلقته بحث امرئ القيس وطرفة. ومع أن غرضه، وهو المدح، لا يمكنه من إظهار شخصيته، فقد استطاع أن يرينا شخصية إنسانية عامة النزعة في عهد لم يكن فيه أثر إلا أثر القبيلة، وانتقل إلى المدح بلا تخلص ولا حيلة، ومدح صاحبيه بطريقة قصصية، وقد أصاب؛ لأن سرد القصة الواقعية عن عمل نبيل كعملهما، هو أعظم مدح، وبعد أن امتدح عملهما وإصلاحهما بين قبيلتين كبيرتين أخذ يعرض أمامنا صوره في تقبيح الحرب، فجاءت هذه الصور أشبه بصور السينماء الناطقة حتى لتكاد تسمعك الضوضاء، ثم أعاد الكرَّة على صاحبيه فمدحهما حتى شبع، وبعد أن أخذ قسطًا قليلًا من الراحة وجَّه نظره إلى الإنسانية جمعاء فقال: سئمت تكاليف الحياة ...إلخ.

لبيد بن ربيعة:

حياته:

أبو عقيل، لبيد بن ربيعة، عامري، من قبيلة قيس، مضري، عمَّر طويلًا بدليل قوله:

ولقد سئمت من الحياة وطولها وسؤال هذا الناس كيف لبيد

وقد عاش في الجاهلية عيشة الشعراء الفرسان الأغنياء، قال أكثر شعره في الجاهلية، ودخل الإسلام وشُغل بحفظ القرآن وتلاوته عن الشعر، ويقولون إنه لم يقل إلا بيتًا واحدًا في الإسلام، وكان جوادا، شجاعا، فاتكا، ورث الجود عن أبيه الملقب بربيعة المعترين، والشجاعة والفتك عن قبيلته، وقد عاش بعد فتح العراق في الكوفة عيشة وداعة وكرم، ينفق ماله على الضعفاء الجياع، حتى كان والي الكوفة يسأل الناس أن يعينوه على مروءته، وقد أرسل إليه كما يروى ١٠٠ ناقة بَكْرة؛ لأنه ألزم نفسه في الجاهلية «ألَّا تهبَّ الصَّبا إلا أطعم».

وبقي على ذلك في الإسلام، أما أغراض شعره: لم يقل الشعر إلا كما قاله الشعراء الفرسان، فلم يتكسب به، قاله بالفخر والفتوة والنجدة والكرم وإيواء الجار وعزة القبيل. في شعره الحكمة والموعظة، وفي رثائه التعزية والحكمة، وهو أحد الرثَّائين الثلاثة: المهلهل والخنساء، ويزيدهما بما يمزج به رثاءه من الحكم، وقد كان جزل الألفاظ، فخم العبارة، دقيق المعنى، لا لغو ولا حشو، لا غرابة لفظ ولا تعقيد معنى.

معلقته:

وأغراضها: ذكر الديار، وصف الناقة، وصف نفسه لاهيًا متغزلًا، جوادًا في السلم، باسلًا مخاطرًا في الحرب، والافتخار بنفسه وقومه ووصفهم بخير الخلال الجاهلية التي يتعشَّقها العرب، وهي تمثل الحياة ومطمح أصحابها، والخلاصة أنه شاعر قوي يستمد قوته من صدقه وإخلاصه وإيمانه الشديد بالمثل العليا الأخلاقية البدوية التي يسمو إليها.

عمرو بن كلثوم:

حياته:

هو أبو الأسود عمرو بن كلثوم بن مالك التغلبي، زعيم تغلب وفارسها وشاعرها، وأمه بنت مهلهل أخي كليب. نشأ بالجزيرة الفراتية شاعرًا خطيبًا. قاد قبيلته في «أيامٍ» جمَّة كان الظفر حليفه في معظمها، أما أيام تغلب فكانت مع أختها قبيلة بكر، إلى أن كان الصلح على يد عمرو بن هند آخر ملوك الحيرة من آل المنذر، ويقولون إنه بعد الصلح بقليل اجتمع وجوه تغلب وبكر في مجلس عمرو بن هند وتلاحوا حتى التشاتم، وإذ ذاك أنشد الحارث بن حلزة معلقته: «آذنتنا ببينها أسماء»، وبعد إنشادها خرج عمرو بن كلثوم غاضبًا من مجلس عمرو بن هند؛ لأنه رأى ميله مع البكريين، وكان أبيُّ النفس، عظيم الهوس والنخوة، جريء النفس عزيزها، لا يهاب إنسانًا ولو ملكًا، لا تستطيع أن تفصل شخصيته عن قبيلته في شعره، وشعره حسن اللفظ، منسجم العبارة، واضح المعنى، رشيق الأسلوب، حافل بفخر لا يضاهى، نبيل القصد والمرمى، يقول شعره لحاجة في نفسه.

معلقته:

وأغراضها: غزلية خمرية، قصصية؛ أي إنه يصف حادثته مع عمرو بن هند عندما حاول استخدام أمه، حماسية فخرية بالنفس والقوم، فيها شيء من ملامح الملاحم، وكما جاء في وصف شعره، لا غرابة فيها، اتفاق تام بين أغراضها وألفاظها ومعانيها، رنانة طنانة.

الحارث بن حلزة :

نسبه:

الحارث بن حلِّزة اليشكري، البكري، كان من اليشكريين كابن كلثوم من التغلبيين.

معلقته:

قيلت في مجلس عمرو بن هند كما تقدم، يقولون إنه قالها ارتجالًا — ولا أظن ذلك — دفاعًا عن قومه، وأغراضها: تغزُّل، وصف الناقة، مدح الملك عمرو بن هند، الفخر بقومه، وذكْر كثير من أيام العرب، تعييب بني تغلب، وهى مُحكَمة النسج، متينة السبك، وجيزة الوصف، رشيقة العبارة، بليغة — أي إنها تجمع معاني كثيرة في قليل من الألفاظ — كثيرة الغريب، عديدة الفنون، شديدة الارتباط.

عنترة بن شداد:

نسبه:

عنترة بن عمرو بن شداد العبسي، من الشعراء الفرسان، أحد أغربة الجاهلية؛ وهم: خفاف بن ندبة، وأبو عمر بن الحباب، وسليك بن السلكة. أبوه سيد عبسي، وأمُّه أمةٌ حبشية. نشأ عبدًا كعادة العرب في أبناء الإماء، وقد حررته شجاعته كما يروي لنا الرواة، كان بطل حرب داحس والغبراء، ومات بعد أن عمَّر طويلًا، وفي شعر عنترة إشارة إلى كل ما يرويه الرواة عنه، ولهذا يُشك في صحة نسبة كل هذا الشعر إليه، فهو يخبرنا في هذا الشعر عن عبوديته وعن فروسيته وعن سواده، وشعره سهل اللفظ بالنسبة للجاهليين، منسجم التركيب فخم، رنان الأسلوب، بعيد عن الكلام الوحشي، جليل الوصف، رقيق الغزل عفيفه.

معلقته:

وموضوعها: (١) ذكر الديار والأحباب (٢) الغزل (٣) وصف ناقته وجواده (٤) وصف شربه الخمر (٥) فخره بنفسه وسيفه (٦) اعتزازه بهما (٧) وصف النزال والطعن وتقتيل الفرسان (٨) عزته بقومه (٩) شتم شاتميه.

وأسلوب عنترة: هو أقرب الشعراء الجاهليين إلينا، فلسفته سهلة وعبارته هينة ومعانيه سامية، فهو لم يلِهِ نفسه بالسفاسف، وما عالج إلَّا كلَّ

موضوع أخلاقي، فوصف نفسه بأنه متنزه عن كل هذه الأشياء، وقد عمل بما قال، كل ذلك بصورة لطيفة ذات تشابيه واستعارات من حياة راقية، لا كما رأينا عند امرئ القيس مثلًا حين راح يشبه أصابع عنيزة بالديدان، ولا أثر للكلفة والتعمد في قصيدة عنترة، وقد خصَّصنا هذه القصيدة للبحث لأنها جامعة للصورة العنترية، ولا عيب فيها إلا الانتقال من غائب إلى مخاطب ولكن بصورة مستحبة، وهي لا تخلو من ألفاظ وإن كانت كريهة وقبيحة الوقع في السمع لكنها مفهومة. ينتقل سريعًا من موضوع إلى آخر، فتبدو قصيدته كأنها مفككة، وقد استعمل هذا العبد ألفاظًا جميلة مثل «دار لآنسةٍ» و«حامي الحقيقة»... إلخ.

فخره:

كان عنترة يفخر بنفسه ولا يخرج في شعره عن وصف ذاته، وسبب ذلك مركب النقص والكبت، فإذا فتشنا عن شاعر عربي مغرم بذاته «نرجسي» لم نجد له مثيلًا، ففخره يتناول جميع ما تفخر به العرب من شجاعة وجود وفروسية ودفاع عن الحوض، وقد كان عنترة في جهد جهيد من سواده وهو لا يعرف كيف يتخلص من نكبته، فإذا بإحساسه يجعله يشعر بأن هذا السواد لا بد له من ماحٍ، فلجأ إلى الصور الشعرية التي لم يوفق إليها أسود غيره؛ قال: يعيبون لوني بالسواد جهالة ولولا سواد الليل ما طلع الفجر.

شعره الملحمي:

نلتقي مع هوميروس بقصة عنترة عندنا، وسيأتي الكلام على هوميروس، ونرى أن قصة الإلياذة شديدة الشبه بقصة عنترة. والناس مختلفون حول عنترة؛ فمنهم من ينكر وجوده كما أنكر بعضهم وجود هوميروس. وسيان عندنا أَوُجِد عنترة أم لم يوجد، فنحن ننظر إلى هذا

الشخص الذي تعجبنا أخلاقه وفروسيته فنحبه ونعجب به، وأخيرًا نقول في هذا البطل: سيان عندنا أكان هجينًا، أم كان غرابًا، مشقوق الشفة، وماذا تهمنا أمه، فلتكن زبيبة، أو زيتونة، أو تفاحة، المهم خلق الرجل وشجاعته، وهذان لا يشك بهما أحد، وإذا لم يكن قد وُجد، فالفضل للذي أوجده، ولا بأس علينا إذا كرمناه كما نكرم الجندي المجهول، هبْ أنه شخص روائي مثل شخوص سرفنتس وموليير والجاحظ، أفما صار هؤلاء كالأشخاص الأكابر الذين عاشوا على وجه الأرض؟ فلينعم عنترة بالًا.

****

العصر الإسلامي:

انتشر الأدب العربي بسبب انتشار الإسلام بالقرن السابع. وكانت اللغة العربية قد انتشرت تحت لوائه لأنها لغة القرآن ولاسيما بالمشرق والمغرب والأندلس حيث تأثر المشارقة والمغاربة بالثقافة والعلوم الإسلامية. فكان الذين وضعوا الأدب العربي في ظلال الحكم الإسلامي هم من أجناس شتى . فمنهم العربي والفارسي والتركي والهندي والسوري والعراقي والمصري والرومي والأرمني والبربري والزنجي والصقلي والأندلسي. وكلهم تعرّبوا ونظموا الشعر العربي وأدخلوا أغراضا شعرية مستجدة وألفوا الكتب العربية في شتى العلوم.

عصر صدر الإسلام:

أحدث ظهور الإسلام تحولاً جذريا في حياة الأمة العربية ونقلها من طور التجزئة القبلية إلى طور التوحد في إطار دولة عربية تدين بالإسلام وتتخذ القرآن الكريم مثلاً أعلى. وكان لابد لهذا الحدث العظيم من أن يعكس صداه القوي في الحياة الأدبية لهذه الأمة، شعرا ونثرا ومن الطبيعي أن النتاج الأدبي للأمة يتفاعل مع البيئة التي تظله ويخضع لمؤثراتها.

وحين تُرصد الظواهر الأدبية في صدر الإسلام يتبين بجلاء ما تركه الإسلام من بصمات واضحة في مسيرة الأدب عصرئذ وفي سماته وخصائصه، ومن أبرز آثاره ضمور فنون أدبية كانت مزدهرة في العصر الجاهلي وظهور فنون جديدة أو تطور فنون قديمة، فقد قضى الإسلام على سجع الكهان الذي كان مرتبطاً بالوثنية الجاهلية ونهي الخطباء عن محاكاة ذلك السجع في خطبهم، وظهر لون من الخطابة يستقي من ينابيع الإسلام، وأخذ الشعراء يعزفون عن النظم في الأغراض التي كانت حياة العرب في الجاهلية تدعو إليها، واتجهوا إلى أغراض دعت إليها البيئة الإسلامية كشعر

الجهاد والفتوح والشعر الديني، وأصبح شعرهم يدور حول معان تتصل بالقيم والمثل الإسلامية، وقد أوجد الإسلام مبادئ خلقية تلائم تعاليمه وروحه فانعكست هذه المبادئ في النتاج الأدبي عصرئذ.

وقد راجت مقولة تذهب إلى أن الإسلام وقف من الشعر والشعراء موقفاً مناهضاً مثبطاً، استناداً إلى قوله تعالى: "والشعراء يتبعهم الغاوون، ألم تر أنهم في كل واد يهيمون، وأنهم يقولون ما لا يفعلون" (الشعراء: ٢٢٤-٢٢٦). وتصحيحاً لهذه المقولة ينبغي التوضيح أن الشعراء الذين تناولتهم الآيات القرآنية إنما هم الشعراء الذين كانوا يحرضون على الفتنة، ويخوضون في الإفك والباطل، والذين كانوا يتصدون لهجاء الرسول عليه السلام والمسلمين، وليس المقصود الشعراء كافة، ولهذا استثنى تعالى الشعراء الذين لا تصدق عليهم الآيات السابقة بقوله بعدها) إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعدما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون((الشعراء ٢٢٧)، وكان الرسول عليه السلام يميل إلى سماع الشعر الجيد، وكان يشجع حسان بن ثابت وشعراء الأنصار على مهاجاة شعراء المشركين، وكان يقول لحسان: «اهجهم وروح القدس معك»، فهو إذا لم يدع إلى التخلي عن الشعر وإنما كان يقف موقفاً مناهضاً من الشعر الذي ينافي المبادئ والقيم الإسلامية، وقد أثر عنه حديث في إطراء الشعر وهو قوله عليه السلام: «إن من الشعر حكمة» (صحيح مسلم).

وكان للإسلام يد لا تنكر في ازدهار النثر الأدبي، ولاسيما الخطابة والترسل، فقد أصبحت الخطابة وسيلة لنشر الدين والوعظ وبيان مبادئ الإسلام والحض على الجهاد والدعوة إلى مكارم الأخلاق وبيان خطة الحكم، وكان الرسول عليه السلام وخلفاؤه خطباء مفوهين، وكذلك كان جل عمالهم وقوادهم. وقد دعا قيام الدولة الإسلامية واتساع سلطانها إلى الاستعانة

بالكتابة والكتاب، وكانت الكتابة محدودة الانتشار في العصر الجاهلي فاتسع لها المجال في صدر الإسلام وأقبلت الناشئة على تعلم الكتابة.

أهم شعراء العصر الإسلامي

أولا: حسان بن ثابت:

حسان بن ثابت الأنصاري شاعر عربي وصحابي من الأنصار، ينتمي إلى قبيلة الخزرج من أهل المدينة، كما كان شاعرًا معتبرًا يفد على ملوك آل غسان في الشام قبل إسلامه، ثم أسلم وصار شاعر الرسول ﷺ بعد الهجرة، وقد توفي أثناء خلافة علي بن أبي طالب بين عامي ٣٥ و٤٠ هـ.

حياته ونسبه:

هو: أبو الوليد حسان بن ثابت بن المنذر الخزرجي الأنصاري، من قبيلة الخزرج، التي هاجرت من اليمن إلى الحجاز، وأقامت في المدينة مع الأوس. ولد في المدينة قبل مولد الرسول ﷺ بنحو ثماني سنين، فعاش في الجاهلية ستين سنة، وفي الإسلام ستين سنة أخرى، وشب في بيت وجاهة وشرف، منصرفًا إلى اللهو والغزل، وهو من بني النجار أخوال عبد المطلب بن هاشم جد النبي محمد من قبيلة الخزرج، ويروى أن أباه ثابت بن المنذر الخزرجي كان من سادة قومه، ومن أشرفهم، وأما أمه فهي الفزيعة بنت خنيس بن لوزان بن عبدون وهي أيضا خزرجية، وقد ولد سنة:٦٠ قبل الهجرة على الأرجح، صحابي وكان ينشد الشعر قبل الإسلام، وكان ممن يفدون على ملوك الغساسنة في الشام، وبعد إسلامه اعتبر شاعر النبي محمد بن عبد الله، وأهدى لهُ النبي جارية قبطية قد اهداها له المقوقس ملك القبط، واسمها سيرين بنت شمعون، فتزوجها حسان، وأنجبت منهُ ولدهُ البكر عبد الرحمن بن حسان بن ثابت، وحسن إسلامها وهي أخت زوجة الرسول مارية القبطية.

ولقد سجلت كتب الأدب والتاريخ الكثير من الأشعار التي ألقاها في هجاء الكفار ومعارضتهم، وكذلك في مدح المسلمين ورثاء شهدائهم وأمواتهم. وأصيب بالعمى قبل وفاته، ولم يشهد مع النبي مشهدًا لعلة أصابته ويعد في طبقة المخضرمين من الشعراء لأنه أدرك الجاهلية والإسلام.

حسان بن ثابت قبل الإسلام:

كانت المدينة في الجاهلية ميدانًا للنزاع بين الأوس والخزرج، تكثُر فيها الخصومات والحروب، وكان قيس بن الخطيم شاعر الأوس، وحسان بن ثابت شاعر الخزرج، الذي كان لسان قومه في تلك الحروب التي نشبت بينهم وبين الأوس في الجاهلية، فصارت له في الجزيرة العربية شهرةٌ واسعة، وقد اتصل حسان بن ثابت بالغساسنة، يمدحهم بشعره، ويتقاسم هو والنابغة الذبياني وعلقمة الفحل أعطيات بني غسان، وقد طابت له الحياة في ظل تلك النعمة الوارفة الظلال، ثم اتصل ببلاط الحيرة وعليها النعمان بن المنذر، فحلَّ محلَّ النابغة، حين كان هذا الأخير في خلاف مع النعمان، إلى أن عاد النابغة إلى ظل أبي قابوس النعمان، فتركه حسان مكرهًا، وقد أفاد من احتكاكه بالملوك معرفةً بشعر المديح وأساليبه، ومعرفة بشعر الهجاء ومذاهبه، ولقد كان أداؤه الفني في شعره يتميز بالتضخيم والتعظيم، واشتمل على ألفاظ جزلة قوية، وهكذا كان في تمام الأهبة للانتقال إلى ظل محمد نبي الإسلام، والمناضَلة دونه بسلاحَي مَدْحِه وهجائه.

حسان بن ثابت في الإسلام:

لما بلغ حسان بن ثابت الستين من عمره، وسمع بالإسلام، دخل فيه، وراح من فوره يرد هجمات القرشيين اللسانيَّة، ويدافع عن محمد والإسلام، ويهجو خصومهما، قال يومًا للأنصار:«ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم ؟!" فقال حسان بن ثابت: أنا لها، وأخذ بطرف لسانه، وقال عليه السلام: "والله ما يسرني به مِقْول بين بصرى وصنعاء»

ولم يكن حسان بن ثابت وحده هو الذي يرد غائلة المشركين من الشعراء؛ بل كان يقف إلى جانبه عدد كبير من الشعراء الذين صحَّ إسلامهم، وكان النبي يثني على شعر حسان، وكان يحثُّه على ذلك ويدعو له بمثل: «اللهم أيده بروح القدس»، وعطف عليه وقرَّبه منه، وقسم له من الغنائم والعطايا، إلا أن حسان بن ثابت لم يكن يهجو قريشًا بالكفر وعبادة الأوثان؛ وإنما كان يهجوهم بالأيام التي هُزِموا فيها، ويُعيرهم بالمثالب والأنساب، ولو هجاهم بالكفر والشرك ما بلغ منهم مبلغًا، ومما لا شك فيه أن حسانَ بن ثابت كان يحظى بمنزلةٍ رفيعةٍ، يجلُّه الخلفاء الراشدون ويفرضون له في العطاء في الوقت نفسه، فإننا لا نجد في خلافة أبي بكر– رضي الله عنه– موقفًا خاصًّا من الشعر، ويبدو أن انشغاله بالفتوحات وحركة الردَّة لم تدَع له وقتًا يفرغ فيه لتوجيه الشعراء أو الاستماع إليهم، في حين نجد أن عمر بن الخطاب يحب الشعر، خاصةً ما لم يكن فيه تكرار للفظ والمعنى، وقد روِي عن كلٍّ من الخليفتَين الراشدَين عددٌ من الأبيات.

حسان بن ثابت يؤيده الروح القدس:

قال رسول الله ﷺ: «"اهجُ قريشًا، فإنه أشد عليهم من رشق بالنبل"، فأرسل إلى ابن رواحة فقال: "اهجهم"، فهجاهم فلم يُرْضِ، فأرسل إلى كعب بن مالك، ثم أرسل إلى حسان بن ثابت، فلما دخل عليه، قال حسان: قد آن لكم أن ترسلوا إلى هذا الأسد الضارب بذنَبه، ثم أدلع لسانه فجعل يحركه، فقال: والذي بعثك بالحقَ! لأفرينَّهم بلساني فرْيَ الأديم، فقال رسول الله: "لا تعجل، فإن أبا بكر أعلم قريش بأنسابها، وإن لي فيهم نسبًا، حتى يلخص لك نسبي"، فأتاه حسان، ثم رجع فقال: يا رسول الله، قد لخص لي نسبك، والذي بعثك بالحق!! لأسلنَّك منهم كما تسل الشعرة من العجين، قالت عائشة: فسمعت رسول الله يقول لحسان: "إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما

نافحت عن الله ورسوله"، وقالت: سمعت رسول الله يقول: "هجاهم حسان، فشفى واشتفى»

شـعره:

اشتهرت مدائحه في الغسانيين قبل الإسلام، ومن أشهر ما وصلنا من تلك القصائد، لاميته التي جاء فيها:

لله درّ عصابةٍ نادمتهـــــــــــم	**يومًا بجِلَّقَ في الزمـــان الأولِ**
أولاد جفنة حـــــــول قبر أبيهمُ	**قبر ابن مارية الكريم المفضلِ**
يسقون من ورد البريص عليهمُ	**بردى يصفّق بالرحيق السلسلِ**
بيضُ الوجوه كريمةُ أحسابهـــم	**شمَ الأنوف مـن الطراز الأولِ**
يغشون حتى ما تهرّ كلابهـــــم	**لا يسألون عن السواد المـقبلِ**

ويؤكد الناقدون أن ما نظمه حسان بعد إسلامه افتقر إلى الجزالة وقوة الصياغة التي كانت له في الجاهلية، ولكنه في مقابل ذلك كان يتمتع بقدر كبير من الحيوية والرقة والسلاسة، ويتوهج من حين إلى آخر بتدفق عاطفي يكشف عما في قلبه من دفء وحرارة، ويتفق النقاد على أن أساليب حسان بن ثابت بعد إسلامه قد سلمت من الحوشية والأخيلة البدوية، ولكن خالطها لين الحضارة، ولم تخل في بعض الأغراض من جزالة اللفظ وفخامة المعنى والعبارة كما في الفخر والحماسة والدفاع عن النبي ورسالته ومعارضته المشركين وهجومهم.

ويقول الناقد محمد مصطفى سلام: "لقد غلبت على أساليب حسان الشعرية الصبغة الإسلامية كتوليد المعاني من عقائد الدين الجديد وأحداثه والاستعانة بصيغ القرآن وتشبيهاته ولطيف كناياته، وضرب أمثاله، واقتباس الألفاظ الإسلامية من الكتاب والسنة وشعائر الدين، كما غلبت عليها الرقة واللين والدماثة واللطف وسهولة المأخذ وواقعية الصورة وقرب الخيال، وأكثر

ما نرى ذلك في شعر الدعوة إلى توحيد الله وتنزيهه، وتهجين عبادة الأوثان، ووصف الشعائر الإسلامية وذكر مآثرها وبيان ثواب المؤمنين وعقاب المشركين وبعض ما مدح به الرسول أصحابه أو رثاهم به"، وقال أبو عبيدة: فضل حسان الشعراء بثلاثة: كان شاعر الأنصار في الجاهلية وشاعر النبي في النبوة وشاعر اليمانيين في الإسلام، وقال المبرد في الكامل: أعرق قوم في الشعراء آل حسان فإنهم يعدون ستةً في نسق كلهم شاعر وهم: سعيد بن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام.

حادثة الإفك:

كان حسان بن ثابت ممن خاض في حادثة الإفك، فقد روى أبو داود بسند حسنه الألباني أن عائشة رضي الله عنها عندما قالت: لما نزل عذري، قام النبي –صلى الله عليه وسلم– على المنبر، فذكر ذلك وتلا القرآن، فلما نزل من المنبر أمر بالرجلين وامرأة فضربوا حدهم، وكان من بينهم حسان بن ثابت، وقد روى مسلم عن عائشة أنها قالت: وكان الذين تكلموا به مسطح وحمنة وحسان، وقد بينت الروايات أن من خاض في الإفك قد تاب –ماعدا ابن أبي المنافق– وقد اعتذر الشاعر حسان بن ثابت، –رضي الله عنه–، عما كان منه، وقال يمدح عائشة –رضى الله عنها–بما هي أهل له، في أبيات قويات تعكس توبة الشاعر توبة تصوحة، فقال:

النحل على لسانه:

نظرًا لمكانته كشاعر الرسول، فقد لقي حسان بن ثابت من نحل الأبيات والقصائد على لسانه ما لم يلقه كثير من الشعراء، كما أدت المنافسة بين قريش والأنصار في عهد بني أمية، ثم الصراع بين القبائل اليمانية (الذين منهم الخزرج قوم حسان) والقيسية إلى المزيد من القصائد المختلقة على لسانه، وقد أشار إلى ذلك النقاد الأولون، يقول ابن سلام الجمحي: «وقد حمل عليه ما لم يحمل على أحد. لما تعاضدت قريش واستبت، وضعوا

عليه أشعارا كثيرة لا تنقى» وقد حذف ابن هشام من ابن إسحاق خمس عشرة قصيدة منسوبة إلى حسان، عشر منها قد وردت في ديوانه، ويقدّر أحد الباحثين المعاصرين نسبة الأشعار المنحولة في ديوان حسان بن ثابت بما بين ٦٠ و ٧٠%.

أغراض شعر حسان بن ثابت

أكثر شعر حسان في الهجاء، وما تبقى في الافتخار بالأنصار، ومدح رسول الله محمد والغساسنة والنعمان بن المنذر وغيرهم من سادات العرب وأشرافهم، ووصف مجالس اللهو والخمر مع شيء من الغزل، إلا أنه منذ إسلامه التزم بمبادئ الإسلام، ومن خلال شعر حسان بن ثابت نجد أن الشعر الإسلامي اكتسب رقةً في التعبير بعد أن عمَّر الإيمان قلوبَ الشعراء، وهي شديدة التأثير بالقرآن الكريم والحديث الشريف مع وجود الألفاظ البدوية الصحراوية.

ومهما استقلَّت أبيات حسان بن ثابت بأفكار وموضوعات خاصَّة، فإن كلاً منها يعبر عن موضوع واحد؛ هو موضوع الدعوة التي أحدثت أكبر تغيير فكري في حياة الناس وأسلوب معاشهم، وسنقسم شخصية حسان بن ثابت الشعرية إلى أربعة أقسام، هي:

شعر حسان بن ثابت القبلي:

قبل أن يدخل حسان بن ثابت في الإسلام كان منصرفًا إلى الذود عن حياض قومه بالمفاخرة، فكان شعره القبلي تغلب عليه صبغة الفخر، أما الداعي إلى ذلك فالعَداء الذي كان ناشبًا بين قبيلته والأوس، ولقد كان لفخر حسان نفحة عالية واندفاعًا شديدًا.

ارتباط حسان بن ثابت بالغساسنة:

اتصل حسان بالبلاط الغساني، فمدح كثيرًا من أمراء غسان، أشهرهم عمرو الرابع بن الحارث، وأخوه النعمان، ولاسيما جبلة بن الأيهم، وقد قرب

الغساسنة الشاعر، وأكرموه وأغدقوا عليه العطايا، وجعلوا له مرتبًا سنويًّا، وكان هو يستدر ذلك العطاء بشعره،

بعد دخول حسان بن ثابت الإسلام:

نصب حسان نفسه للدفاع عن الدين الإسلامي، والرد على أنصار الجاهلية، وقد نشبت بين الفريقين معارك لسانية حامية، فكان الشعر شعر نضال يهجو فيه الأعداء، ويمدح فيه رجال الفريق، ولم يكن المدح ولا الهجاء للتكسب أو الاستجداء؛ بل للدفاع عن الرسول الكريم وهذا ينقسم لقسمين:

١- المدح

نجده في شعر حسان لهذا العهد، فهو مقصور على النبي وخلفائه وكبار الصحابة، والذين أبلَوا في الدفاع عن الإسلام بلاءً حسنًا، وهو يختلف عن المدح التكسُّبي بصدوفه عن التقلب على معاني العطاء والجود، والانطواء على وصف الخصال الحميدة ورسالة محمد وما إلى ذلك مما ينبثق من العاطفة الحقَة والعقيدة النفيسة، قال حسان:

أغَرُّ عَلَيْهِ لِلنُّبُوَّةِ خَـــــــــاتَمٌ	مِنَ اللَّهِ مَشْهُودٌ يَلُوحُ ويُشْهـــــــدُ
وضمَّ الإلهُ اسمَ النبيّ إلـــى اسمـهِ	إذا قَالَ في الخَمْسِ المُؤذِّنُ أشْهَـــدُ
وشقّ لهُ منِ اسمهِ ليجلـــــــــهُ	فذو العرشِ محمودٌ وهذا محمـــــــدُ
نَبيٌّ أتَانَا بَعْدَ يَأسٍ وَفَـــــــــتْرَةٍ	منَ الرسلِ والأوثانِ في الأرضِ تعبدُ
فَأمْسَى سِرَاجاً مُسْتَنِيرًا وَهَادِيـــــــــاً	يَلُوحُ كما لاحَ الصّقِيلُ المُـــــــهَنَّدُ
وأنذرنا ناراً، وبشرَ جـــــــــنة	وعلمنا الإسلامَ فاللهَ نحمـــــــــدُ
وأنتَ إلهَ الخلقِ ربي وخالـــــــقي	بذلكَ ما عمرتُ في الناسِ أشهـــــدُ
تَعَالَيْتَ رَبَّ الناسِ عن قَوْلِ مَن دَعا	سِوَاكَ إلهاً أنْتَ أعْلَى وَأمْجَـــــــدُ
لكَ الخلقُ والنعماءُ والأمرُ كلـــــــهُ	فإيّاكَ نَسْتَهْدي وإيّاكَ نَعْبُـــــــدُ

وأما الهجاء النضالي فقد وجهه إلى القرشيين الذين قاموا في وجه الدين الجديد يحاربونه ويهجون محمدًا، وكان موقف الشاعر تجاههم حربًا لما بينهم وبين محمد من نسب.

٢- الهجاء:

فقد كان يعمد إلى الواحد منهم فيفصله عن الدوحة القرشية، ويجعله فيهم طائرًا غريبًا يلجأ إليها كعبد، ثم يذكر نسبه لأمه فيطعن به طعنًا شنيعًا، ثم يسدد سهامه في أخلاق الرجل وعرضه فيمزقها تمزيقًا في إقذاع شديد، ويخرج ذلك الرجل موطنًا للجهل والبخل والجبن والفرار عن إنقاذ الأحبة من وهدة الموت في المعارك.

وفاة حسان بن ثابت:

توفي حسان بن ثابت في المدينة ما بين عامي ٣٥ و٤٠ هـ في عهد علي بن أبي طالب عن عمر ناهز المائة والعشرين عامًا. ورجح بعض المؤرخين، أن حسان ابن ثابت: توفي في زمن خلافة معاوية بن أبي سفيان ما بين عام: ٥٠ هـ وعام ٥٤ هـ.

****

ثانياً: كعب بن زهير (؟؟؟- ٢٦ هـ = ٦٤٦م):

هو كعب بن زهير بن أبي سلمى، المزني، شاعر مخضرم من أشهر قصائده اللامية التي مطلعها بانت سعاد.

حياته:

شاعر مخضرم عاش عصرين مختلفين، هما: عصر ما قبل الإسلام وعصر صدر الإسلام، عالي الطبقة، كان ممن اشتهر في الجاهلية ولما ظهر الإسلام هجا النبي محمد، وأقام يشبب بنساء المسلمين، فأهدر دمه

فجاءه كعب مستأمناً وقد أسلم وأنشده لاميته المشهورة التي مطلعها: بانت سعاد فقلبي اليوم متبول، فعفا عنه النبي، وخلع عليه بردته، وهو من أعرق الناس في الشعر: فأبوه زهير بن أبي سلمى، وأخوه بجير وابنه عقبة وحفيده العوّام كلهم شعراء، وقد كَثُر مخمّسو لاميته ومشطّروها وترجمت إلى غير العربية.

تلقن كعب الشعر عن أبيه مثله مثل أخيه بجير، وكان زهير يحفظهم الشعر منه شعره، ويقولون عن كعب أنه كان يخرج به أبوه إلى الصحراء، فيلقي عليه بيتا أو سطرا ويطلب أن يجيزه تمرينا ودرّبه، كما أن كعبا كان في عصر ما قبل الإسلام شاعرا معروفا، أكثر من الحطيئة، حاول كعب أن ينظم الشعر منذ حداثته فردعه أبوه، مخافة أن يتسفّل، ويأتي بالضعيف فيشوّه مجد الأسرة، وما زال يهذّب لسانه ويجهّز شاعريته برواية الشعر حتى استقام له النظم.

نسبه:

هو كعب بن زهير بن أبي سلمى بن ربيعة بن رياح بن العوام بن قُرط بن الحارث بن مازن بن خلاوة بن ثعلبة بن ثور بن هرمة بن لاطم بن عثمان بن مزينة– ١٣ ق. هـ / ? – ٦٠٩ م.

أمه امرأة من بني عبد الله بن غطفان يقال لها كبشة بنت عمار بن عدي بن سحيم، وهي أم كل ولد زهير.

سنة ولادته ووفاته:

تاريخ مولد شاعر الإسلام كعب بن زهير مجهول تقريبا، إلا أن كثيراً من مراجع التاريخ والأدب أكدت أن كعب بن زهير بن أبي سلمى توفي نحو سنة ٦٦٢م / ٢٤ هـ.

شعره:

كعب بن زهير بن أبي سلمى أحد الفحول المخضرمين، وكان كعب قد بلغ من الشعر والشهرة حظا مرموقا حين دعاه النبيَّ إلى الإسلام، وإذا اسلم أخوه بجير، وبّخه واستحثه على الرجوع عن دينٍ لم يكن عليه أحد من أبائه، فهجاه كعب ثم هجا النبي، فسمع شعره فتوعده وأهدر دمه، فهام كعب يترامى على القبائل أن تجيره فلم يجره أحد، فنصحه أخوه بالمجيء إلى النبي مسلما تائبا، فرجع بعد أن ضاقت الأرض في وجهه، وأتى المدينة وبدأ بأبي بكر ودخل المسجد وتوسل به إلى الرسول فأقبل به عليه وآمن وأنشد قصيدته المشهورة (بانت سعاد)، فعفا عنه النبي، وخلع عليه بردته فسميت قصيدته بـ (البردة)، ثم حسن إسلامه وأخذ يصدر شعره عن مواعظ وحكم متأثرا بحكم القرآن، وظهرت المعاني الإسلامية في شعره من أن الله هو رازق لعباده وغير ذلك.

إسلامه:

إسلام كعب قصة ترويها بعض كتب التاريخ العربي وتراجم الأدباء العرب، فعندما جاء الإسلام اسلم بجير، وبقي كعب على دينه، ووقف في الجبهة المعادية للرسول وللمؤمنين به، ولم ينج بجير بسبب إسلامه من لسان كعب، فهجاه لخروجه على دين آبائه وأجداده فرد عليه بجير وطالبه باتباع الدين الإسلامي لينجو بنفسه من نار جهنم، لكنه ظل على دينه إلى أن فتحت مكة فكتب إليه بجير يخبره بأن الرسول قد أهدر دمه، وقال له: "إن النبي قتل كل من آذاه من شعراء المشركين وإن ابن الزبعري وهبيرة بن أبي وهب قد هربا، وما أحسبك ناجيا، فإن كان لك في نفسك حاجة فأقدم على رسول الله فإنه لا يقتل أحدا جاءه تائبا"، وعندما قرأ كعب كتاب أخيه ضاقت به الدنيا،، فلجأ إلى قبيلته مزينة لتجيره من النبي فأبت عليه ذلك، وعندئذ استبد به الخوف وأيقن انه مقتول.

لما قدم الرسول من منصرفه عن الطائف كتب بجير بن زهير إلى أخيه كعب بن زهير يخبره أن الرسول قتل رجالاً بمكة، ممن كان يهجوه ويؤذيه، وأن من بقي من شعراء قريش، قد هربوا في كل وجه، فإن كانت لك في نفسك حاجة، فطِر إلى رسول الله، فإنه لا يقتل أحدا جاءه تائبا، وإن أنت لم تفعل فانجُ إلى نجائك من الأرض؛ وفي رواية أخرى أنه لما بلغ كعبا كتاب أخيه ضاقت به الأرض، وأشفق على نفسه، وأرجف به من كان في حاضره من عدُوَه، فقالوا: هو مقتول، فلما يجد من شيء بُدّا، خرج حتى قَدِم المدينة، فنزل على رجل كانت بينَهُ وبينه معرفة، فغدا به إلى الرسول الصبح، فصلى معه، ثم أشار له إليه فقال: "هذا رسول الله، فقم إليه فاستأمِنهُ"، فقام كعب إلى الرسول، حتى جلس إليه، فوضع يده في يده، وكان الرسول يعرفه، فقال: "يا رسول الله، إن كعب بن زهير قد جاء ليستأمِنَ منك تائبا مسلماً، فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به؟" قال الرسول: نعم؛ قال: "أنا يا رسول الله كعب بن زهير"، ويروى: أنه وثب عليه رجل من الأنصار، فقال: "يا رسول الله، دعني وعدوَّ الله أضرِب عنقه"؛ فقال: دعه عنك، فإنه قد جاء تائبا، نازعا عما كان عليه، فاستأذن كعب النبي، وقال قصيدته المشهورة بـ(البردة)، التي يقول فيها:

بانَت سُعـــــادُ فَقَلبي اليَومَ مَتبولُ	**مُتَيَّمٌ إثرَها لَـــــــــــم يُجزَ مَكبولُ**
وَما سُعادُ غَداةَ البَينِ إِذ رَحَـــــلوا	**إِلّا أَغَنُّ غَضيضُ الطَرفِ مَكـــــحولُ**

قصائده:

إلى جانب قصيدته التي حققت له شهرة كبيرة "بانت سعاد" فإن لكعب بن زهير إنتاجا شعريا متنوعا، جمع بعضه أو معظمه في ديوان يحمل اسمه، أما موضوعات شعره فهي كغيرها من موضوعات الشعر الجاهلي، تتراوح بين الفخر والمدح والهجاء والرثاء والغزل والوصف وبعض الحكم، لكن النقاد يفرقون في شعره بين اتجاهين متباينين؛ لأن إسلام كعب قد غير في

نهج شعره وأمده بكثير من الصور، ورقق ألفاظه ومعانيه حيث كان كعب في الجاهلية يميل إلى الشدة والتقعر وخاصة في وصف الصحراء وحيواناتها، بينما بعد الإسلام نراه كما يقول النقاد يميل إلى إرسال الحكمة وإلى الابتعاد عن الموضوعات الجاهلية.

****

العصر الأموي:

أدى قيام الدولة الإسلامية إلى ظهور أدب إسلامي يغاير في كثير من خصائصه الأدب الجاهلي، بيد أن قصر حقبة صدر الإسلام (١هـ، ٤٠هـ) لم يتح لهذا الأدب أن يمد جذوره وأن تتضح سماته الجديدة، فلما كان العصر الأموي أتيح لهذا الأدب الجديد أن يزدهر وأن تتضح قسماته، وساعدت على هذا التطور عوامل كثيرة سياسية واجتماعية ودينية.

وأبرز المؤثرات في الحياة الأدبية عصرئذ كانت المؤثرات السياسية، فقد نقل الأمويون حاضرة ملكهم إلى بيئة جديدة تغاير بيئة الحجاز هي الشام. وأسسوا ملكاً وراثياً يتداول فيه بنو أمية الحكم من دون سواهم ويقمعون كل معارضة تنزع إلى سلبهم ملكهم، وكان لجل خلفاء بني أمية مقدرة سياسية تجعلهم مهيئين لتولي مقاليد الحكم، وقد قوبل نزوع بني أمية إلى الاستئثار بالأمر بمعارضة عنيفة من طوائف من رعيتهم، منهم الخوارج الذين كانوا يريدون الخلافة شورية لا تكون وقفاً على قريش وحدها بل يتولاها كل من تتوافر فيه المؤهلات المطلوبة ولو كان عبدا حبشيا، ومنهم الشيعة الذين كانوا يرون آل البيت أحق بتولي الأمر من جميع بطون قريش ومن جميع المسلمين ويجعلون الإمامة أمر إلهيا، فالله اختار نبيه والنبي اختار وصيه علياً، وكل إمام يوصي لمن يليه، وقد اتهموا بني أمية بأنهم افتأتوا عليهم وغصبوهم حقهم الشرعي، على أن حزبي الخوارج والشيعة ما لبثا أن انقسما إلى فرق تختلف فيما بينها في طائفة من المعتقدات، فانقسم الخوارج إلى أزارقة – وهم أشدهم تطرفا– وإباضية، ونجدات، وصفرية، وفرق أخرى أقل شأنا، وانقسم الشيعة إلى إمامية اثني عشرية، وإمامية سبعية (إسماعيلية)، وكيسانية، وزيدية، وقد قام كل من الخوارج والشيعة بثورات متصلة طوال العصر الأموي ولكنهم لم يستطيعوا تحقيق نصر حاسم لتفرق

كلمتهم وقلة عددهم، ولكن ثوراتهم أدت إلى زعزعة أركان الحكم الأموي. ومن هذه الطوائف كذلك جماعة عبد الله بن الزبير الذي كان يرى أنه أحق بالخلافة من يزيد بن معاوية، وقام بينه وبين بني أمية نزاع دموي استمر عشر سنوات وانتهى بمقتله والقضاء على أصحابه سنة ٧٣هـ، ومن هذه الطوائف من ثار على بني أمية لعدم رضاهم عن سياسة أميرهم، فثار عبد الرحمن ابن الأشعث على الحجاج ثورة كادت تزلزل أركان الحكم الأموي ولكنه أخفق في تحقيق النصر وانتهى الأمر بموته منتحراً، وثار يزيد بن المهلب على يزيد بن عبد الملك وانتهى أمره بمقتله.

ومن أهم ثورات الخوارج التي تمخض عنها عصر بني أمية ثورات الأزارقة الذين كانوا أشد الخوارج تطرفا وتشددا، وقد قتل زعيمهم نافع ابن الأزرق في موقعة دولاب مع أهل البصرة، وتوالت ثوراتهم بعد ذلك واستطاع القائد المحنك المهلب ابن أبي صفرة أن يبعد خطرهم ويصد حملاتهم وأن يقضي عليهم آخر الأمر، وفي الوقت عينه كان الخوارج الصفرية يشنون حملات عنيفة على مدينة الكوفة يقودهم الخارجي شبيب بن يزيد، وقد استطاع هذا الخارجي أن يهزم جيوشاً كثيرة أرسلها إليه الحجاج، بل لقد استطاع دخول الكوفة ومعه زوجه غزالة الحرورية، واضطر الحجاج أن يستنجد بعبد الملك الذي وجه لنجدته جيشاً من أهل الشام، وأخيرا هلك شبيب وزوجه وأخوه في موقعة على مشارف الكوفة. وفي أواخر العصر الأموي قام الخارجي الضحاك بن قيس الشيباني بحملة على الكوفة في جمع غفير من الخوارج واستطاع الاستيلاء عليها ولكنه هزم بعدئذ في موقعة مع جيش وجهه إليه مروان بن محمد وانتهى الأمر بمصرعه، ولم تكد ثورته تنطفئ حتى انطلق الخوارج الإباضية من بلاد اليمن إلى الحجاز واستطاع قائدهم أبو حمزة الخارجي أن يستولي على مكة والمدينة ولكنه لم يستطع أن يصد الجيش الذي وجهه إليه مروان بن محمد من الشام فقتل في موقعة بوادي

القرى، وعلى الرغم من إخفاق ثورات الخوارج فإن ثوراتهم المتصلة كانت من أقوى الأسباب في إضعاف الحكم الأموي وجعله عاجزاً عن الوقوف في وجه أنصار الدعوة العباسية.

وكانت ثورات الشيعة أقل خطرا من ثورات الخوارج، فقد أعلن الحسين بن علي خلافه على يزيد بن معاوية ولما قدم بآل بيته إلى الكوفة تخلت عنه شيعته فانتهى أمره بالقتل ومعه جل آل بيته، وكذلك أخفقت ثورة التوابين في إحراز نصر حاسم على بني أمية، واستطاع المختار الثقفي أن يستولي على الكوفة وأن يهزم جيش أهل الشام ولكنه لم يستطع التغلب على جيش مصعب بن الزبير وقتل، وكذلك أخفقت ثورة زيد بن علي بالكوفة لخذلان أهل الكوفة إياه فقتل وصلب كما قتل ابنه يحيى بعد ذلك.

ويتصل بالمؤثرات السياسية حركة الفتح الإسلامي التي بلغت أوجها في ذلك العصر، وقد استطاع الفاتحون المسلمون أن يمدوا حدود الدولة الإسلامية في حقبة قصيرة إلى أقصى المغرب وإلى بلاد الأندلس ومشارف بلاد الروم، وامتدت فتوحهم شرقاً إلى بلاد فارس وسجستان وخراسان وما وراء النهر وبلاد السند، فكان الفتح الإسلامي أسرع فتح عرفه التاريخ، وكان العرب الفاتحون حين يبسطون سلطانهم السياسي ينشرون معه عقيدتهم ولغتهم وأدبهم، كما كانوا يتأثرون بحضارة الأمم التي بسطوا سلطانهم عليها وبأدبها وعاداتها الاجتماعية، وقد أدت الفتوح إلى امتلاء أيدي الفاتحين بالفيء والأموال وأدى هذا إلى اختلاف نمط حياتهم اختلافا بينا عما كانت عليه يوم كانوا يعيشون حياة التقشف والضيق في جزيرتهم.

فكذلك وجد للأدب العربي في عصر بني أمية بيئات جديدة غير بيئة الجزيرة العربية، مهده الأول، فتلون الأدب بألوان هذه البيئات وتأثر بها، فكان لبيئات الشام والعراق وخراسان ومصر والمغرب والأندلس أثرها القوي في الحياة الاجتماعية والفكرية والأدبية.

ومن المؤثرات الاجتماعية في الحياة الأدبية كذلك ظهور طبقة الموالي التي كانت في تكاثر مستمر سواء من طريق الفتوح أو الشراء، وكان لا مفر من أن يكون لوجودها أثر واضح في المجتمع العربي كما كان لها أثر في الحياة الأدبية، فقد حذقت طوائف من الموالي اللغة العربية لنشأتهم بين ظهراني مواليهم العرب، ووقفوا على التراث الأدبي وما لبثوا أن شاركوا في الحياة الأدبية فظهر منهم الكتاب والشعراء، على أن بني أمية كانوا يقمعون أية محاولة يقوم بها الموالي لإبراز هويتهم القومية أو لرفع أصواتهم بنائرة العصبية المعادية للجنس العربي، فظلت الكلمة الأولى للعرب طوال ذلك العصر، على نقيض ما حدث في العصر العباسي.

ولئن أفلح بنو أمية في قمع العصبية القومية فإنهم لم يفلحوا في إخماد جذوة العصبية القبلية التي استعرت في ذلك العصر وبرزت على نحو أعنف وأبعد أثرا مما كانت عليه في العصر الجاهلي، وكان استعارها بفعل عوامل شتى اجتماعية وسياسية واقتصادية، وقد ظهرت في ذلك العصر التكتلات القبلية الواسعة فاحتدم الصراع بين العدنانية والقحطانية، كما نشب الصراع في إطار كل من هاتين الكتلتين، وقد تركت هذه الفتن القبلية صداها القوي في الحياة الأدبية، وفي الشعر خاصة، فنشط فن المناقضات وكثرت المفاخرات القبلية، ووقف الشعراء والخطباء وراء احتدام هذه العصبيات فكان الشعراء يلتقون في المربد والمحافل فيتفاخرون ويتهاجون والناس حلق حولهم وكل فئة تتعصب لشاعرها فتزداد نار العصبية بذلك اتقادا.

وثمة عامل آخر كان له أقوى الأثر في الحياة الأدبية عصرئذ هو البلاط الأموي، وموقفه من الشعراء والخطباء، وكذلك موقف ولاة بني أمية منهم. فقد دأب خلفاء بني أمية وولاتهم على إكرام الشعراء الذين ينتجعونهم فأغدقوا عليهم الأموال بسخاء، فلا غرو أن يتجه الشعراء إلى فن المديح ويجعلوه فنهم الأول، وأن يتزاحم فحول الشعراء على أبواب الخلفاء والولاة

يمدحونهم ويبالغون في إطرائهم ليظفروا بالعطايا والصلات، فإذا بفن المديح – الذي كان الجاهليون ينظرون إليه على أنه فن يزري بقائله – يغدو الفن الأول في الشعر العربي، وإذا بالشعراء المداحين يتنافسون في التقرب إلى أولي الأمر ليحظوا بالمال والشهرة فيخرج الشعر بذلك عن مساره الحق ويسلك مسارا آخر يبعد عن الصدق والأصالة، وفي الميدان الفكري تظهر مؤثرات تتجه بالفكر العربي وجهات لا عهد له بها وتثير قضايا لم تخطر له من قبل، فيثور الجدل بين المسلمين في شؤون عقدية كالقضاء والقدر وحرية الإرادة والثواب والعقاب والكبائر ونحوها وتظهر الفرق الكلامية كالقدرية والمعتزلة والجهمية والمرجئة وغيرها ويشغل المسلمون بالجدل في هذه الأمور ويتلون الأدب الأموي من جراء ذلك بألوان فكرية تخصبه وتوسع آفاقه.

اتجاهات الشعر في العصر الأموي:

نشط الشعر في عهد بني أمية على مختلف الاتجاهات السياسيّة والحربيّة والعقديّة؛ فقد كثرت الأحزاب في هذا العهد منها الموالية، وكثير منها معارضة كالشيعة، وحزب الزبيرية وهم كالآتي:

بنو أمية:

فقد نجحوا بتأسيس دولتهم والقضاء على معارضيهم، وكان شعراؤهم كثر، والأشعار التي قيلت في مدحهم والثناء عليهم من عيون الشعر العربي.

الشيعة:

وهم الذين يرون أن تنحصر الخلافة في أبناء علي –رضي الله عنه– وحدهم وكانت العراق هي مركز تواجدهم وموطن قوتهم، وهم فرق

منهم الزيدية والكيسانية والاثناعشرية وغيرهم، ومن شعرائهم: كثير عزة، الكميت الأسدي صاحب الهاشمية المشهورة.

الخوارج:

وهم الذين خرجوا على الإمام علي لأنه قبل مبدأ التحكيم بينه وبين معاوية بن أبي سفيان، وهم الذي قتلوا علياً– رضي الله عنه– على يد عبد الرحمن بن ملجم، وهم أيضًا فرق منهم الأزارقة والصفريّة والإباضيّة، ومن أشهر شعرائهم: قطريّ بن الفجاءة، عمران بن حطّان، والطرماح بن حكيم.

أغراض الشعر الأموي:

تنوعت أغراض الشعر في العصر الأمويّ وتعددت، ونشأت هذه الأغراض تبعًا لعوامل ومؤثرات، ألهمت الشعراء وأثارت قريحتهم، كان منها ما أُلّف في العصر الجاهليَ وعصر صدر الإسلام، ومنها ما استجد في هذا العصر، ومن هذه الأغراض:

المديح:

هو ذكر أوصاف الممدوح الخلقية والخلقية بالإضافة إلى تصوير فضائله وذكر مناقبه وتقواه وعدالته، وقد شاع هذا الغرض بين الخلفاء والأمراء والولاة، فأخذ الشاعر يتحدث عن عدالة الخليفة وكرمه وجوده على الناس، ووصف بعض الخلفاء أيضًا بالتقى والورع والزهد بمتاع الدنيا كعمر بن عبد العزيز، ولم يختص الخلفاء وحدهم بالمديح بل كان أيضًا للولاة وأمراء الجيوش وقادته نصيب من المديح.

الهجاء:

وهو ذكر الصفات الذميمة في المهجوّ، وقد وظف هذا الهجاء في أغراض السياسة، فكان يقال لبيان ضلال الفئة المعارضة وثبوت ضلالها وانحرافها عن الدين، ومن أسباب الهجاء أيضًا ما قيل بدافع العصبية القبليّة: "ولم يكد ينجُ منه خليفة ولا والٍ ولا شريف بل حتى القراء، كان يتعرض لهم الشعراء.

الغزل صريحه وعذريه:

أما صريحه: وسمّي بهذا؛ لأنَّ الشاعر يصف مغامراته مع فتيات نبيلات لا يتعدى لقاؤه بهن المتعة بالحديث، وقد نشأ هذا الغزل في حاضرتي الحجاز مكة والمدينة، وأشهر شعراء هذا العزل هو الشاعر عمر بن أبي ربيعة.

و**أما عذريَّه:** فهو الذي ينسب إلى قبيلة عذرة، وشاع في بوادي نجد والحجاز، ويعود السبب في نشوء هذا الغزل هو ما أدخله الإسلام في نفوس أهل البادية، فزكاها وأبعدها عمّا يلوثها من الآثام والمعاصي، وارتباطه بالعفة كان السبب في شيوعه ورواجه.

الرثاء:

هو غرض من الأغراض التقليدية، يذكر فيها الشاعر صفات المرثي ومحاسنه وأخلاقه ومآثره التي بقيت وإن مات هو، ويظهر فيه مقدار التفجع والحب الذي يكنه له، وفي العصر الأموي كثرت الحروب وكثر من يقتلون على إثرها، ورثى شعراء كل فرقة أمواتهم رثاء صادقًا مليئًا بالعاطفة، وقد كانت هذه المراثي تتسم بالتأثر بالروح الدينية وذكر ما ينتظرهم من نعيم مقيم في دار الخلد، والتسليم لقضاء الله وقدره.

الزهد:

كان عصر بني أمية عصر فتوحات وغنائم، وأصبحت العرب تملك القرى والضياع وشيدوا القصور والبيوت، شاع الترف ومال الناس إلى اللهو والمجون، إلا أنَّ هذا لم يكن شأن الناس جميعًا، ففيهم القرَّاء الأتقياء الأنقياء، مَن رغبوا عن الدنيا وزهدوا في متاعها واتجهوا إلى التنسك والعبادة، وكان أثر الإسلام في شعرهم واضحًا.

الحنين إلى الوطن:

دار هذا الشعر حول الحروب والفتوحات، ووصف ما شاهده العرب أثناء هذه الرحلات، وهناك في تلك البلاد البعيدة حنَّ الشعراء لأوطانهم واشتاقت نفوسهم لأهليهم وأحبابهم، وكان هذا الحنين يزيد ويتضاعف إذا أحسّ الشاعر باقتراب الموت أو إذا مرض مرضًا شديدًا، أو أنه قد تذكر طيف محبوبته والمواطن التي تلاقى فيها وإياها، وقد باعدت الأيام بينهما مسافات طويلة.

الوصف:

اتخذَّ الشعراء الأمويون من وصف الطبيعة الجديدة والعمارة الجميلة وسيلة للتعبير عمّا يخالج أنفسهم من المشاعر والأحاسيس، وهو شعر جديد في هذا العصر لم يكن من قبل في العصر الجاهليّ، ووصف جرير في بعض مدائحه نهيرات شقها هشام بن عبد الملك في نهر الفرات، وما نبت على ضفافها من ورود وشجيرات، تدل على رقة هذا الفن وقتذاك.

خصائص الشعر الأموي:

تقسم خصائص الشعر الحديث إلى خصائص من حيث الموضوعات، ومن حيث المضمون إلى ما يأتي:

النظم وفق الموضوعات القديمة:

وكانت امتدادًا للعصر الجاهلي ولم يحدثوا فيها جديدًا، إذ كانت الأشعار وفق هذه الموضوعات تستخدم الطريقة التقليدية، وهي المدح والرثاء والفخر والوصف.

بروز أغراض جديدة:

ظهرت على أثر تبدّل الظروف والبيئات واختلاط العرب بغيرهم، ودخول الناس في الإيلام من غير العرب، وهنا يتجلى الفرق في الموضوعات بين العصر الجاهلي والعصر الأموي وهي: الحنين إلى الأوطان، وصف الطبيعة، الخمريات.

المحافظة على سلامة اللغة العربية:

ظلَّ الشعر الأمويّ محافظًا على اللغة العربيّة وسلامتها، وغلبت على هذا الشعر البداوة والتقعر اللغويّ، وهذا اللون من الشعر حظي على استحسان البعض وذم الآخر، ومِن أشهر مَن نظم على هذا النحو الفرزدق.

الصور والأخيلة:

كانت صورهم وأخيلتهم قريبة إلى الشعر الجاهليّ، واعتمدوا في التصوير والتشبيه على الاستعارة والكناية، وقد تأثروا بالقرآن الكريم والحديث الشريف في صورهم، وكان أبرز ذلك عند شعراء الخوارج.

أسباب ازدهار الشعر في العصر الأموي:

قد أدت عدة عوامل إلى ازدهار الشعر في العصر الأموي وتنوع أغراضه وطرق عرضه، منها:

تنوع البيئات:

إذ إنّ تعدد بيئات الشعر في العصر الأموي كان له أكبر الأثر في ازدهار الشعر وتزايد حركته ونشاطه، وكان له أثر في ظهور أغراض شعرية جديدة أغنت الشعر الأموي.

عودة العصبيّة القبليّة:

وتفاخر كل قوم من العرب بمآثرهم ومناقبهم، والمنافسة في ذم القبيلة الأخرى وهجائها، وعن هذه العصبية ظهر لنا شعر النقائض.

تمازج الثقافات:

أي ما أحدثه اتساع أرض الدولة الأموي على أثر الفتوحات الإسلامية من دخول أعداد كبيرة من غير المسلمين إلى الإسلام، وتعرف المسلمين على ثقافات الشعوب الأخرى كالفارسية والهندية واليونانية.

المجالس الأدبيّة:

وما شهدته من مبارايات شعرية في المديح والفخر والرثاء، وقد تهافت الشعراء عليها ابتغاء الحصول على الجوائز والأعطيات من الخليفة أو الأمير الذي كان حاضرًا على رأس هذه المجالس، وقد برز في هذه المجالس النقد الأدبي للأشعار التي تقال فيه.

الاهتمام برواية الشعر ونقده:

فما حفظ على لسان الناس من أشعار العرب في المفاخرة والمهاجاة وغيرها كثير، ما دفع الشعراء في هذا العصر إلى أن يحاولوا أن ينظموا على طريقتها ويعارضونها، وكان عدد من الشعراء يتصدى لنقدها أيضًا وفق معايير وأسس معيّنة.

****

أهم الشعراء:

أولا: جرير:

جرير بن عطية الكلبي اليربوعي التميمي (٣٣ هـ – ١١٠ هـ/ ٦٥٣ – ٧٢٨ م) شاعرُ من بني كليب بن يربوع من قبيلة بني تميم وهي قبيلة في نجد، ولد في بادية نجد، ومن أشهر شعراء العرب في فن الهجاء، وكان بارعًا في المدح أيضًا، وكان جرير أشعر أهل عصره، ولد ومات في نجد، وعاش عمره كله يناضل شعراء زمانه، ويساجلهم فلم يثبت أمامه غير الفرزدق والأخطل، كان عفيفا، وهو من أغزل الناس شعرا، بدأ حياته الشعرية بنقائض ضد شعراء محليين، ثم تحول إلى الفرزدق –ولج الهجاء بينهما نحوا من أربعين سنة– وإن شمل بهجائه أغلب شعراء زمانه، ومدح بني أمية ولازم الحجاج زهاء العشرين سنة، وقد وصلت أخباره وأشعاره الآفاق وهو لا يزال حيا، واشتغلت مصنفات النقد والأدب به، اقترن ذكره بالفرزدق والأخطل.

نشأته:

كان له نسب كريم، مع أن والده كان على قدر كبير من الفقر، ولكن جده حذيفة بن بدر الملقب بالخطفي كان يملك قطيعا كبيرا من الإبل والغنم، وكان ينظم الشعر وكذلك كانت أمه، وعندما ولد جرير وضعته أمه لسبعة أشهر من حملها، ورأت رؤيا مفزغة فذهبت إلى العراف حتى يفسر الرؤيا، فأخبرها أنها ستَلِد عضلة من العضل، وقد نشأ جرير في بادية نجد وعاش فيها، وتعلم الشعر مبكرًا على لسان جده حذيفة بن بدر، وقد نشأ في العصر الأموي الذي تعددت فيه الأحزاب، فكان لكل حزب شعراؤه الذين يتحدثون باسمه ويذودون عنه، وكان على

جرير أن يذود عن شرف وكرامة قبيلته، فاضطر أن يفني عمره في مصارعة الشعراء وهجائهم حتى قيل أنه هجا وهزم ثمانين شاعرًا في عصره، ولم يثبت منهم إلا الأخطل والفرزدق.

شعره:

شاع أن جريرا من الذين "هجوا فوضعوا من قدر من هجوا" شأن زهير وطرفة والأعشى والنابغة؛ لذلك لم يرفع بنو نمير رأسا بعد بيت جرير إلّا نكس بهذا البيت، وصنعت الأخبار في ما يجد خصمه من العناء والموت أحيانا لنجاعة شعره وعميق أثره في الناس، وجرت أشعاره مجرى الأحاجي، وتمثلوا بها في تصاريف حياتهم ووضعت فيها الأصوات ونسبت إلى آراء في المغنين، وجعل رواية لأخبارهم، ومورثهم الشعر، واتصل بهم وسافر إليهم لينصت إلى ما وضعوا في أشعاره من أصوات، ولذلك سارت أشعاره في كتب الأخبار والتاريخ، وجرت فيها مصادر معرفة وأقيسة في الإفتاء، وعل سبيل المثال: أمر الحجاج بن يوسف (ت٩٥هـ) بأن تضرب عنق سعيد بن جبير، وقد نكث ببيعتين لأمير المؤمنين، وجعل مرجعه في هذا الأمر قول جرير:

يا ربّ ناكث بيعتين تركته وخضاب لحيته دم الأوداج

وأعرض الخليفة المنصور (ت١٥٨هـ) عن الزواج بأخت هشام بن عمرو التغلبي، لبيت قاله جرير في بني تغلب:

لا تطلبنّ خوّولة في تغلب فالزنج أكرم منهم أخوالا

قال: «فأخاف أن تلد لي ولدا فيعبر بهذا البيت»، وقد شاعت الأخبار في شعر جرير وسيرته في الناس، وشاعت الأخبار التي تنزل جرير منزلة الناقد في تقدير مراتب الشعراء والحكم بينهم، وشبهت منزلته من

شعراء الإسلام بمنزلة الأعشى من شعراء الجاهلية، فهو أستاذهم لذلك أقر الراعي النميري (خصم جرير) بأن: «الإنس والجن لو اجتمعت ما أغنوا فيه شيئا»، ولذلك أيضا قال أبو مهدي الباهلي، وهو من علماء العرب: «لا يزال الشعراء موقوفين يوم القيامة حتى يجيء جرير فيحكم بينهم»، ومن شعره يرثي زوجته، وهي من أعظم المراثي العربية:

لولا الحياء لهاجني استعبارُ ولزرت قبركِ والحبيبُ يزارُ
ولقد نظرتُ وما تمتعُ نظرةٌ في اللحدِ حيث تمكنُ المحفارُ
فجزاكِ ربكِ في عشيركِ نظرةٌ وسقي صداك مجلجل مدرارُ
ولَّهتِ قلبي إذ علتني كبرةٌ وذوو التمائم من بنيك صغارُ

ففي هذه الأبيات يظهر حزنه، حين يرثي الشاعر زوجته المتوفاة، ويقع في أبياته بين صراع تفرضه عليه العادات والتقاليد، وبين آلامه وأحزانه ومحبته لزوجته، والأبيات تصور فقده زوجته، أم أولاده، وقد أصبح متقدما في السن، فقد كبر وكاد أن يتحطم، فهو بعد وفاة زوجته أصبح مسؤولاً عن تربية أطفاله الصغار ورعايتهم، ثم ينتهي إلى التسليم بأمر الله ثم يدعو لها أن ترعاها الملائكة، لأنها كانت زوجة وفية صالحة.

تفوق جرير:

قال أعرابي في مجلس الخليفة عبد الملك بن مروان، وكان عنده جرير: «بيوت الشعر أربع (مدح وفخر وغزل وهجاء) وفي كلها غلب جرير»، ففي الفخر قال:

إذا غضبت عليك بنو تميم حسبت الناس كلهم غضابا

وفي المدح قال:

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

وقوله في الغزل:

إن العيون التي في طرفها حور قتلننا ثم لم يحيين قتلانا

وفي الهجاء قوله:

فغض الطرف انك من نمير فلا كعبًا بلغت ولا كلابا

جرير والراعي النميري:

تبادل جرير والفرزدق الهجاء لأكثر من أربعين سنة، وكان كثير من الشعراء ينزلق في هذه المناظرة مؤيدا شاعرا على الآخر، وهذا ما حدث للراعي النميري، حيث انحاز إلى الفرزدق على حساب جرير حيث قال:

يا صاحبي دنا الرواح فسيرا غلب الفرزدق في الهجاء جريرا

فلم يمهله جرير كثيرا، بل أعد له في اليوم التالي قصيدة تتكون من ٩٧ بيتا من الشعر، فأتى سوق المربد بعد أن احتل الناس مراكزهم، وأسرج ناقته عند مجلس الفرزدق والراعي النميري وألقى قصيدته، ويطلق عليها الدامغة، وهذه بعض أبياتها:

أعد الله للشعراء منـــــــي صواعق يخضعون لها الرقابا

فلا صلى الإله على نمير ولا سقيت قبورهم السحـــــــــابا

ولو وزنت حلوم بني نمير على الميزان ما بلغت ذبـــابا

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعب بلغت ولا كـــــلابا

إذا غضبت عليك بنو تميم حسبت الناس كلهم غضـــابا

وقد اتفق علماء الأدب وأئمة نقد الشعر على أنه لم يوجد في الشعراء الذين نشأوا في ملك الإسلام أبلغ من جرير والفرزدق والأخطل، وإنما اختلفوا في أيهم أشعر، ولكل هوى وميل في تقديمه صاحبه؛ فمن

كان هواه في رقة النسيب، وجودة الغزل والتشبيب، وجمال اللفظ ولين الأسلوب، والتصرف في أغراض شتى فضّل جريرا، ومن مال إلى إجادة الفخر، وفخامة اللفظ، ودقة المسلك وصلابة الشعر، وقوّة أسره فضّل الفرزدق، ومن نظر بُعد بلاغة اللفظ، وحُسن الصوغ إلى إجادة المدح والإمعان في الهجاء، واستهواه وصف الخمر واجتماع الندمان عليها، حكم للأخطل، وإن لجرير في كل باب من الشعر أبياتا سائرة، هي الغاية التي يضرب بها المثل، ومن ذلك قوله في الفخر:

إذا غَضِبَتْ عليكَ بنو تميم حَسِبْت الناس كلَّهُم غِضابا

ومن قوله يمدح عمر بن عبد العزيز:

إنـا لنرجو إذا مـا الغيث أخلفنـا من الخليفـة مـا نرجو من المطر

ومن قوله في التهكم:

زعـم الفرزدق أن سيقتل مربعا أبشـر بطـول سـلامة يـا مربع

وقوله في مدح عبد الملك بن مروان:

ألَسْتُم خَيْر مَنْ ركب المطايا وأندى العالمين بطونَ راحٍ

وقوله في صدق النفس:

إني لأرجو منك خيرا عاجلا والنفس مولعة بحب العاجل

وتلحظ روعة هذه الأبيات، وجمالها، حتى صارت علامة على تفوق جرير الخطفي في الشعر، كما صارت أمثله يُستشهد بها في مواقف الحياة المختلفة.

المديح عند جرير:

لقد أكثرَ جريرُ من المديح، وخصوصا لبني أمية، وكان مديحَهُ لهم يشيد بمجدهم التليدِ ويروي مآثرَهم ومكارمَهم، وإذا مدح الحجاج أو

الأمويين بالغ في وصفهم بصفات الشرف وعلو المنزلة والسطوة وقوة البطش، ويلح إلحاحا شديداً في وصفهم بالجود والسخاء ليهز أريحيتهم، وقد يسرف في الاستجداء وما يعانيه من الفاقة، كما تكثر في أماديحه لهم الألفاظ الإسلامية والاقتباسات القرآنية، وقد عاصر الشاعر "عبيد الراعي" الشاعرين جريرًا والفرزدق، فقيل إن الراعي الشاعر كان يسأل عن هذين الشاعرين فيقول: «الفرزدق أكبر منهما وأشعرهما»، فمرة في الطريق رآه الشاعر جرير وطلب منه أن لا يدخل بينه وبين الفرزدق فوعده بذلك، لكن الراعي هذا لم يلبث أن عاد إلى تفضيل الفرزدق على جرير، فحدث أن رآه ثانية، فعاتبه فأخذ يعتذر إليه، وبينما هما على هذا الحال، إذ أقبل ابن الراعي وأبى أن يسمع اعتذار أبيه لجرير، حيث شتم ابن الراعي الشاعر جريرًا وأساء إليه.

كما أن الهجاء عند جرير شديد الصلة بالفخر، فهو إذا هجا افتخر، وجعل من الفخر وسيلة لإذلال خصمه، أما موضوع فخره فنفسه وشاعريته، ثم قومه وإسلامه، فإذا هجا الفرزدق اصطدم بأصل الفرزدق الذي هو أصله، فكلاهما من"تميم"، وإذا هجا الأخطل فخر بإسلامه ومضريته، وفي مضر النبوة والخلافة:

إن الذي حرم المكارم تغلبا جعل الخلافة والنبوة فينا

غزل جرير:

لم يكن غزل جرير فنا مستقلا في شعره، فقد مزج فيه أسلوب الغزل الجاهلي بأسلوب الغزل العذري. فهو يصف المرأة ويتغزل بها، ثم يتنقل من ذلك إلي التعبير عن دواخل نفسه، فيصور لنا لوعته وألمه وحرمانه، كما يحاول رصد لجات نفسه فيقول:

إن العيون التي في طرفها حـــور قتلننا ثم لـــم يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتي لا حراك به وهن أضعف خلق الله أركانا

أسلوب جرير:

يتميز أسلوبه بسهولة الألفاظ وهي ظاهرة في جميع شعره، وبها يختلف عن منافسيه الفرزدق والأخطل اللذين كانت ألفاظهما أميل إلى الغرابة والتوعر والخشونة، وقد أوتي جرير موهبة شعرية ثربة، وحسا موسيقيا، ظهر أثرهما في هذه الموسيقى العذبة التي تشيع في شعره كله، وكان له من طبعه الفياض خير معين للإتيان بالتراكيب السهلة التي لا تعقيد فيها ولا التواء، فكأنك تقرأ نثراً لا شعرا.

إن اعتماد جرير على الطبع وانسياقه مع فطرته الشعرية من الأمور التي أدت أيضا إلى سهولة شعره وسلاسة أسلوبه ورقة ألفاظه، إذ كان لشعره موسيقى تطرب لها النفس، ويهتز لها حس العربي الذي يعجب بجمال الصيغة والشكل، ويؤخذ بأناقة التعبير وحلاوة الجرس أكثر مما يؤخذ بعمق الفكرة والغوص في المعاني، ولهذا أبدع جرير في أبواب الشعر التي تلائمها الرقة والعذوبة، كالنسيب والرثاء.

وكان لحياة جرير البدوية أثرها الكبير في شعره، كما كان لها أثرها في نفسه، فتأثير النشأة البدوية واضح من جزالة ألفاظه ورقتها وسهولتها. إلا أن شعر جرير لم يخلص لأثر البادية وحدها، فقد كان للقرآن الكريم أثره في شعره، إذ لطف فيه من طابع البداوة، وكان له أثره في رقة ألفاظه وسهولة أسلوبه، كما كان له أثر في معانيه وأفكاره، كما أن جرير لا يكثر من الصور البيانية في قصائده، ففي شعره يظهر الأسلوب البدوي، وهو قريب التناول جميل التعبير.

خصائص أشعار جرير:

يتميز شعره بملامح فنية أبرزها أنه في شعره يجول في ساحات واسعة الأرجاء، متعددة الجوانب، فقد طرق أكثر الأغراض الشعرية المعروفة وأجاد فيها، وأعانته على ذلك طبيعته الخاصة المواتية، وكانت معاني الشاعر جرير في شعره فطرية، كما أن الصور والأخيلة جاءت متصلة بالبادية التي ارتبطت بها حياته أشد الارتباط، ولجرير بعد ذلك قدرته على انتقاء اللفظ الجزل، ومتانة النسج، وحلاوة العبارة، والجرس الموسيقي المؤثر، وخاصة في غزله حيث العاطفة الصادقة التي تتألم وتتنفس في تعبير رقيق لين.

****

ثانيًا: الفرزدق:

الفرزدق (٣٨ هـ / ٦٤١م – ١١٠ هـ / ٧٣٢م) شاعر عربي من شعراء العصر الأموي من أهل البصرة، واسمه: همام بن غالب بن صعصعة الدارمي التميمي، وكنيته أبو فراس، وسُمي الفرزدق لضخامة وتجهم وجهه، ومعناها: الرغيف، اشتهر بشعر المدح والفخرُ وَشعرُ الهجاء.

النشأة:

ولد الفرزدق عام ٣٨ للهجرة، وقد سمي بالفرزدق لضخامة وتجهم وجهه. ومعنى الفرزدق، هو الرغيف وواحدته فَرَزْدَقَة، والفرزدق يشبه بزهير بن أبي سلمى وكلاهما من شعراء الطبقة الأولى، زهير في الجاهليين والفرزدق في الإسلاميين، وهو وأبوه قثراء ومن نبلاء قومه

وسادتهم بنو تميم ومن أكثر الشعراء، يقال أنه لم يكن يجلس لوجبة وحده أبدا، وكان يجير من استجار بقبر أبيه، والموؤودات وهن البنات التي كانت تدفن قبل الإسلام في الجاهلية وأدرك الإسلام وكان كريماً جواداً. كان الفرزدق كثير الهجاء، إذ أنَّه اشتهر بالنقائض التي بينه وبين جرير الشاعر حيث تبادل الهجاء هو وجرير طيلة نصف قرن حتى توفي ورثاه جرير، تنقل بين الأمراء والولاة يمدحهم ثم يهجوهم ثم يمدحه.

الفرزدق وجرير:

نظم في معظم فنون الشعر المعروفة في عصره وكان يكثر الفخر يليه في ذلك الهجاء ثم المديح، مدح الخلفاء الأمويين بالشام، ولكنه لم يدم عندهم لمناصرته لآل البيت. كان معاصراً للأخطل ولجرير الشاعر أيضًا، وكانت بينهما صداقة حميمة، إلا أن النقائض بينهما أوهمت البعض أن بينهم تحاسداً وكرها، وانشعب الناس في أمرهما شعبتين لكل شاعر منهما فريق، لجرير في الفرزدق رثاء جميل.

الفرزدق وآل البيت:

كانت للفرزدق مواقف فيما يخص آل البيت، وكان ينشد بين أيدي الخلفاء قاعدا، جاء في كتاب الموجز في الشعر العربي للشاعر العراقي فالح الحجية الكيلاني أنه لقب بالفرزدق لجهامة ووجوم في وجهه يكاد لا يفارقه مدح قومه وفخر بهم ومدح العلويين ومدح الأمويين كذلك، ويتميز شعره بقوة الأسلوب والجودة الشعرية وقد أدخل في الشعر العربي الكثير من الألفاظ الغريبة وبرع في:(المدح والفخر والهجاء والوصف) يقول أهل اللغة: لولا شعر الفرزدق لذهب ثلث

العربية، فقد كان مقدمًا في الشعراء، وصريحا جريئا، يتجلى ذلك عندما يعود له الفضل في أحياء الكثير من الكلمات العربية التي اندثرت.

قدم هشام بن عبد الملك للحج برفقة حاشيته، وقد كان معهم الشاعر العربي الفرزدق وكان البيت الحرام مكتظاً بالحجيج في تلك السنة ولم يُفسح له المجال للطواف فجلب له متكأ ينتظر دوره وعندما قدم الإمام زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب انشقت له صفوف الناس حتى أدرك الحجر الأسود، فثارت حفيظة هشام وأغاظه ما فعلته الحجيج لعلي بن الحسين فسئل هشام بن عبد الملك من هَذا؟ فأجابه الشاعر العربي الفرزدق هذه القصيدة وهي من أروع ما قاله ومطلعها:

هَذا الّذي تَعرِفُ البَطْحاءُ وَطْأتَهُ وَالبَيْتُ يعْرِفُهُ وَالحِلُّ وَالحَرَمُ

الفخر:

كان الفرزدق معروفا بفخره وتأتي الكلمات أكثر سلاسة في شعره عندما يفتخر بنسبه، ويفاخر بنسبه معاصريه من الشعراء، ومن أشهر قصائده في هذا السياق عندما يخاطبُ الشاعرَ جرير:

إِنَّ الَّذي سَمَكَ السَماءَ بَنـــى لَنا	**بَيتًا دَعائِمُهُ أَعَزُّ وَأَطـــــــوَلُ**

****

العصر العباسي:

لم يكن هينا على الأمويين أن يحتفظوا بملكهم طويلاً بعد عصر الراشدين، بسبب الثورات المتلاحقة التي كانت تنشب في وجههم وتنازعهم الحكم، ولاسيما ثورات الخوارج والشيعة والزبيريين. ثم كانت ثورة العباسيين سنة ١٣٢هـ/٧٥٠م آخر حلقة في سلسلة تلك الثورات، التي أنهكت دولة بني أمية وآلت إلى القضاء عليها، كان في مقدمة ماتطلع إليه بنو العباس التمركز في حاضرة جديدة بعيداً عن دمشق موطن الأمويين، وفي منأى عن الكوفة معقل الشيعة، وقد آثر الخليفة الثاني أبو جعفر المنصور لذلك موقع قرية على دجلة تدعى بغداد على مقربة من مدينة بابل القديمة، واتخذها عاصمة لملكه وأطلق عليها لقب دار السلام مقتبساً ذلك من القرآن الكريم. وانصرف المنصور إلى إعمار حاضرته على خير وجه، فابتنى فيها القلاع والجسور، وأقام حولها الأرباض والسدود، ونشر في ربوعها الشوارع والأسواق.

وقد ظلت البادية حتى ضحى هذا العهد ترفد المدن والحواضر بمواد اللغة والأخبار، والخطب والأشعار، بوصفها موطن الأصالة ومنبع الإبداع. ثم أخذ الرواة واللغويون ينتشرون في حواضر العراق ويتجمعون في مدنها، حتى اكتظت بهم الكوفة والبصرة فضلاً عن بغداد، وفي هذه المراكز العلمية والأوساط الأدبية قامت حركة تدوين رائدة لم يكن لمثلها نظير. فنشط الرواة وكثر المؤلفون وراجت سوق الوراقين. وقد واكب ذلك على صعيد الأدب نبوغ عدد من الشعراء والكتَّاب الذين احتضنتهم هذه المدن، واتسم نتاجهم المنظوم والمنثور بكثير من ملامح الجدة والطرافة، وما من ريب في أن الاستقرار السياسي، ولاسيما بعد انقضاء طور الفتوح والقضاء على الفتن، قد ساعد على الالتفات إلى شؤون الأدب والعلم وقضايا الفلسفة والفكر، وجعل

الظروف ملائمة لتدفق العطاء وتفجر الإبداع. وكان من المعهود أن يولي الخلفاء كل ذلك اهتمامهم ويحرصوا على تشجيع ذوي المواهب، يعينهم على ذلك ثراء كبير تجمع في خزائنهم من موارد البلاد الواسعة. بل إن من الخلفاء أنفسهم من كان معروفا بميله إلى الأدب وحبه للعلم مثل المهدي والرشيد، والأمين والمأمون، والمعتصم والمتوكل. كذلك سار أمراء بني العباس وولاتهم ووزراؤهم على غرار خلفائهم، فكان لكل منهم بلاط يقارب بلاط الخليفة أو يضارعه، من مثل ما كان لآل برمك، وطاهر بن الحسين، وعبد الله بن طاهر، ثم الصاحب بن عبّاد وابن العميد وعضد الدولة والمهلبي وسيف الدولة الحمداني.

ويعد العصر العباسي أزهى العصور العربية حضارة ورقياً، كما أنه أطولها زمنا، إذ امتد حتى سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م، حين تمكن هولاكو المغولي بجحافله اللجبة من اجتياح بلاد العراق والشام والقضاء على الدولة العباسية في بغداد التي دامت ما يزيد على خمسة قرون، وبوسع الباحث أن يتبين عهدين كبيرين في هذه الحقبة العباسية المديدة: عهد قوة ومنعة عاش فيه الخليفة عزيز السلطان مهيب الجانب، ويعرف بالعهد الذهبي الذي يصادف القرن الثاني وبعض القرن الثالث الهجري (القرنين الثامن والتاسع للميلاد)، وعهد انحلال سياسي، تخاذل فيه الخلفاء وضعفت في أيامهم هيبة الحكم، فما أطل القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، حتى غدت بلاد فارس في حوزة بني بويه، والموصل وديار بكر وديار ربيعة ومضر في أيدي بني حمدان، ومصر والشام في قبضة محمد بن طغج ثم الفاطميين.

على أن التفكك السياسي لم يصحبه بالضرورة تقهقر حضاري ولا تخلف علمي، بل إن الفكر العربي الإسلامي، بما أوتي من قوة دافعة أكسبته إياها القرون الأولى الوطيدة، استطاع أن يمضي في طريق النضج والازدهار ويغمر الأرض بنور المعرفة وألق الإبداع. فقد تعددت مراكز الإشعاع

الحضاري، إضافة إلى مدن العراق، فكانت مكة والمدينة في الحجاز، والفسطاط والقاهرة في مصر، وحلب ودمشق في الشام، والري وهمذان في فارس ثم بخارى وسمرقند في ما وراء النهر، وغزنة في أفغانستان وجرجان في خرسان.

وكان طبيعيا في غمار هذا الوضع السياسي والاجتماعي أن ينطوي ذلك المجتمع الجديد على تمازج في العادات والثقافات، وأن يفرز هذا العصر أصنافاً من العلوم وألوانا من الآداب، وأن يعكس ذلك على كل صعيد في الحياة العامة وفي جملتها الحياة الأدبية.

الشعر والشعراء في العصر العباسي

إن الأدب لسان حال العصر وترجمان المحيط، فإذا شئنا أن ندرس درسًا واضحًا أدبَ هذا العصرِ العباسي علينا أن نوطئ له بدرس عن حضارته، ولم يكن شعب هذا العصر عربيًّا قحًّا، ولا فارسيًّا خالصًا، بل مزيج من الشعبين وغيرهما من الشعوب التي كانت تسكن العراق وتعمل في أرضه، وهي مكونة من العقلية العربية والفارسية والسامية القديمة، متأثرة بالديانة المسيحية وثقافة اليونانيين، ولذلك كانت مخالفة كل المخالفة لحياة العرب في عهد بني أمية، فكان الفرق عظيمًا جدًّا بين الحياتين، فلذلك ضعف أثر الحياة البدوية الخالصة في هذا الجيل من أهل العراق، وتأثر جدًّا بالحضارة الفارسية القديمة، فنشأ عن ذلك، وعن ذهاب سلطة العرب؛ تمتُّع أهل هذا الجيل الجديد بكل ما كان لا يتمتع فيه العربي في العهد الماضي، فاستوى فيه الغالب والمغلوب في كل شيء، فتضاءلت سلطة الدين الإسلامي، لحداثة القوم فيه ولتأثير ديانتهم القديمة الموروثة عليهم، وكانت لغتهم أيضًا بين الفصاحة الخالصة والرطانة الأعجمية.

والفرق بين هذا الجيل والجيل الذي تقدمه، أن هذا ظهر فيه ميل شديد للحياة العلمية، فانتشر العلم وتنوع، فمنه ما حدث ومنه ما نما وارتقى، ومنه ما نقل، فمحَّصوه ودرسوه حتى هضموه وطبعوه بطابع عربي خاص، وكان في العصر الأموي علم، ولكنه كان إسلاميًّا محضًا، وهو يسير وساذج، أما في هذا الجيل فكثرت وتشعبت فروعه.

وبعد هذا الجيل عهد الأدب بالبداوة العربية، فقلَّ حظه من السذاجة فتكلف وتعقد، وظهرت آثار التعمل فيه، بعدما كان ساذجًا، وبعد الطبع، والسجية الحرة الخالصة، ونشأت في الأدب فروع وفنون، لم تكن معروفة من قبل إلا قليلًا.

والخلاصة: قد تطور كل شيء تطورًا يلائم البيئة والعقل والدين.

أما الشعر: فلم يضعف في هذا العصر، بل قوي ونما وتطور في ألفاظه ومعانيه وأوزانه وقوافيه وأغراضه وفنونه.

ألفاظه: رقَّت وسهلت فبعدت جدًّا عن ألفاظ الشعراء في العصر الإسلامي أيام جرير والفرزدق والأخطل، فإذا قرأت شعر بعضهم كمسلم بن الوليد وأبي العتاهية والعباس بن الأحنف فكأنك تقرأ كلامًا منثورًا، لولا الوزن والقافية.

معانيه: تطورت معاني الشعر فانصرفوا عن المعاني البدوية، أو المعاني البدوية المتأثرة بالحضارة، إلى المعاني الحضرية الصرف، فبعد أن كان الشعر الإسلامي يصدر عن الطبع بلا تكلف، أصبح متحضرًا يسيطر عليه العقل، ويرده إلى ميدان الخيال الفسيح، وإذا عدا الشاعر ذلك عدوه منه تقصيرًا عن الإتقان الفني.

أوزانه: ورغب الشعراء عن الأوزان الطويلة، وفضلوا عليها الخفيفة السهلة القصيرة، ولاءموا بينها وبين موضوعاتهم، فاختاروا للغزل والمجون أوزانًا تلائمها، وإذا مدحوا الخلفاء والوزراء أو رثوا أو جدُّوا في أمر، فضلوا

الأوزان الطويلة، ويسروا على أنفسهم في القوافي، واختاروا أسهل الألفاظ وأحبها للسمع، وتجنبوا عيوب الشعر: كالإيطاء والإقواء والإكفاء والسناد.

أغراضه:

الشعر السياسي:

لم يطل عهد الشعر السياسي في هذا العصر إذ لم تبقَ حاجة إليه، ورغب الخلفاء عنه فأصبح الشاعر لدى الخليفة كالنديم له، وذلك بعد انحلال الأحزاب، فضعف الشعر السياسي حتى أصبح كنوع من الهجاء يقوله الشاعر متقيًا، عند سنوح الفرصة.

الغزل:

أما الغزل العذري، فامَّحى إلا قليلًا؛ لأن العفة والطهارة لم تكن من مميزات هذا العصر، فالجواري والغلمان كانت تباع في الأسواق بيع السلع، أما الغزل العادي فتطور ولم يعد صورة صادقة للعاطفة وميل النفس، وبقي محفوظًا كفنٍّ موروث لا ينبغي أن يضيع، وظهرت بدعة جديدة في الغزل، استنبطها فساد البيئة وكثرة الرقيق، وهذا الغزل هو المعروف بغزل المذكر، وهو وصمة في جبين أدبنا.

الهجاء:

أما الهجاء فازداد قبحًا وإقذاعًا وفحشًا يبحث فيه عن السيئات.

المدح:

وأما المدح فتجاوزت فيه المبالغة الحد، وبعد فيه الشعراء عن الاعتدال الذي هو من مميزات الطبع العربي الخالص، فانحطَّ به بعض الشعراء واتخذوه أداة لكسبهم بلا حياء ولا كرامة.

المجون:

وأشد الشعر نموًّا في هذا العصر، شعر المجون ووصف الخمر، وهو ما نسميه بشعر القصور، فتهالك الناس عليه لفساد أخلاقهم وانحلال

روابطهم الاجتماعية، وتسلط الإماء على الحياة المنزلية واستئثارهن بمكان الحرائر، وإتقانهن العربية وآدابها، وبروزهن للناس واشتراكهن في حياة العبث واللهو جهرًا، وتسلط الرقيق من غلمان الترك والروم على نفوس الزعماء والسادة، حتى صاروا يدبرون القصور والثروة كما يرغبون، وساعد أيضًا على اشتداد هذا النوع من الشعر، ظهور المذاهب الفلسفية والمقالات الدينية وتسلط الشك على النفوس.

الزهد:

وظهر فن جديد، وهو الزهد، دعا إليه اتصال العرب بالفرس وانتشار الحكمة الفلسفية الفارسية والهندية، ظهر في شعر أبي العتاهية، كما ظهر في نثر ابن المقفع.

الشعر التعليمي:

وظهر نوع جديد من الشعر هو الشعر التعليمي؛ أي نظم فنون العلم شعرًا ليسهل حفظها؛ كنظم كليلة ودمنة، وقصائد في الفقه.

الوصف:

أما الشعر الوصفي فتبدل واشتد، فبعد أن كان البدوي يصف ناقته وخيله وصحراءه، وصفوا الحضارة وقصورها والبساتين والخمارات والكئوس والصيد، فوصفوا هذا الأخير كما كان يفعل الفرس، فدققوا في وصف الكلاب والجوارح، وكان الرجز أداة لهذا الوصف، وشعراء هذا العصر طبقات يتبع بعضها بعضًا، ولكل طبقة زعماء، وزعماء أولى هذه الطبقات ثلاثة: بشار ابن برد، والسيد الحِمْيَري، ومروان بن أبي حفصة.

(١) بشار بن برد:

نسبه: بشار بن برد بن يرجوخ، كنيته أبو معاذ، لقبه المرعث، أبوه مولى امرأة عقيلية، حرفة أبيه طيان، فبشار عربي عجمي، من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، كثير التبرم بالناس لعماه، متلون في ولائه، يكره

العرب ويحث الشعوب على كرههم، ويتعصب لهم أحيانًا ويتشيع للعلويين، كان الناس يزدرونه حتى يخرج عن طوره، ولولا خوفهم لسانه ما انفكوا عنه.

شخصيته: ضخم مجدور طويل جاحظ العينين يغشاهما لحم أحمر، فكان أقبح الناس منظرًا وعمى، وفيه يقول حماد عجرد:

وأعمى يشبه القرد إذا ما عمي القرد

لم يرَ الدنيا قط، وقال والده إنه لم يرَ مولودًا أعظم بركة منه، وكان متوقد الذهن ذكي القلب، وقد زعم أن العمى يقوي الذكاء فيتوفر الحس وتذكو القريحة، وقد قال الشعر وهو ابن عشر سنين، وما بلغ الحلم حتى هابه الناس للسانه، هجا جريرًا ولم يردَّ عليه.

زعامة الشعر: قلَّده إياها رجال عصره لأسباب: هجوه العلماء، اتباع أسلوب البادية وألفاظهم، وتحضير الشعر، كثرة المعلمين عليه، غزله الرقيق الذي أحبه الظرفاء والخالعون ورووه فهبت ريحه، أضف إلى ذلك ما لبشار من صنعة وفن، وقد قال فيه الجاحظ: كان بشار يدين بالرجعة، ويكفِّر الأمة، ويقدِّم النار على الطين، حيث قال:

الأرض مظلمة والنار مشرقة والنار معبودة مذ كانت النار

وكان الأصمعي يشبهه بالنابغة والأعشى، ويقول عنه خاتمة الشعراء.

ادعاؤه: معتد بنفسه يرى فيها كل ذكاء، يرى نفسه أشعر الناس وعلى الناس أن يقولوا ذلك ويعترفوا به، وقد قال عن نفسه: من أين يأتيني الخطأ وقد نشأت في حجر ٨٠ شيخًا من بني عقيل الفصحاء، ونساؤهم أفصح منهم. ومع هذا نرى لبشار شعرًا ركيكًا مبتذلًا لا يقوله فصحاء العرب، كقوله:

ربابة ربـــة البيت تصب الخل في الزيت

لها عشر دجاجات وديك حسن الصـــوت

وقوله:

إنما عظم سليمي قصب قصب السكر لا عظم الجمل

فإذا أدنيت منها بصلا غلب المسك على ريح البصل

بشار والنحاة: انتقده الأخفش فهجاه، فاسترضاه وسكت عنه، وصار يحتج بشعره، وكذلك فعل بسيبويه.

استهتاره: كان مستهترًا في شعره، خالعًا فاحشًا، فنهاه الخليفة المهدي عن الغزل والتشبب بالنساء وإغرائهن على الفحشاء، وكان قليل الدين لا يصلي، وقد امتحن ذلك أصحابه بوضعهم ترابًا على ثيابه فيرونه لم يقم، وقد سئل في ذلك فقال: الذي يقبلها تفاريق لا يرفضها جملة.

نباهته: جاءه رجل يسأله عن بيت فجعل يفهمه فلم يفهم، فقاده إلى السبيل حتى أوصله وقال له هذا البيت:

أعمى يقود بصيرًا لا أبا لكم قد ضل من كانت العميان تهديه

صدقه: كان بشار يقول الشعر عن غير عاطفة، فهو غير صادق في لهجته، قال ابن الصياح: دخلت على بشار وهو منبطح في دهليزه كأنه جاموس، فقلت له: يا أبا معاذ، من القائل:

في حلتي جسم فتي ناحل لو هبت الريح به طاحا

قال: أنا، قلت: ما الذي حملك على هذا الكذب، وإنني لأرى أن لو بعث الله الرياح الأربع التي أهلك بها الأمم الخالية ما حركتك من مدخلك؟ وقس على هذا من شعر بشار.

كيف مات: هجا المهدي لأنه لم يجزه، ولأنه لا يرعى حرمة محسن أو مسيء، بل يهجو أيًّا كان بسبب وبلا سبب، وكان هجا المهدي ووزيره يعقوب بن داود معًا بقوله:

بني أمية هبوا طال نومكم إن الخليفـــــــة يعقوب بن داود

ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا خليفة الله بين الرقِّ والعود

فلما أخبره يعقوب بالهجاء، انحدر إلى البصرة للنظر في أمرها، فسمع أذانًا في وقت ضحى النهار، فقال: انظروا ما هذا الأذان، فقالوا له: بشار يؤذن

وهو سكران، فأمر بجلده ٧٠ سوطًا، فكان إذا أوجعه السوط قال: حس، فقالوا: يا أمير المؤمنين انظر إلى زندقته فإنه لا يسمِّي، فقال بشار: ويحكم! أطعام هو فأسمِّي عليه، فلما ضرب ٧٠ سوطًا بان الموت فيه، فألقي في سفينة حتى مات، ثم رمي في البطيحة.

بغض الناس له: فلما علم أهل البصرة بموته هنَّأ بعضهم بعضًا، وفي حياته كان السعيد منهم من لا يعرف بشارًا، ولم يمش في جنازته غير جارية له، وفيه يقول شاعر من قصيدة:

بل زعموا أن أهله فرحًا لما أتاهم نعيه سجدوا

سخريته: أنشد المهدي قصيدة، وكان خال المهدي ضعيف العقل، فأقبل على بشار يسأله: ما صناعتك؟ فأجابه بشار: أثقب اللؤلؤ، فضحك المهدي وقال له: أتتنادر على خالي؟ فقال بشار: وماذا أصنع به، ألم يرني رجلًا أعمى؟ رمَحَت رجلًا بغلة، فقال: الحمد لله شكرًا، فقال له بشار: استزده يزدك، ومر قوم يحملون جنازة مسرعين بها، فقال بشار: ما لهم مسرعين، أتراهم سرقوه؟ أنفق غلامه عشرة دراهم على جلاء مرآته، فتعجب بشار من جلاء مرآة لأعمى، فقال: لو صدئت عين الشمس حتى يبقى العالم في ظلمة، ما دفعت أجرة من يجلوها ١٠ دراهم.

سرعة خاطر: قالت له زوجته: لماذا يهابك الناس على قبح وجهك؟ فقال: ليس من حسنه يُهاب الأسد، وقد كان جالسًا أمام بيته وبيده مخصرة وأمامه طبق تفاح، فحاول أحدهم سرقته، فضربه بالقضيب، فقال له الرجل: أوَ أنت أعمى؟! فأجابه: يا أحمق، وأين الحس؟!

نفسيته: مجَّان مازح، وإنما مزحه مؤلم، كان في السبعين كأنه في ريعان صباه، والدليل أذانه وهو سكران، كان خليعًا شهوانيًّا، شَرِه في الملذات هائج العاطفة أبدًا، تدل على ذلك أشعاره، جريء جسور لا يستحي «الحيا في النظر» غير صبور وغير متقن لعمله، والدليل على ذلك إدخاله في شعره

ألفاظًا لا أصل لها، جبان ثقيل الظل يخاف على روحه أيما خوف لأنانيته وحبه لذاته، وكان يهجو ليعيش لا لأنه يحب الهجاء، وهجاؤه مجموعة عيوب يضعها فيمن ينقم عليه أو يطمع بماله.

شعره: وصف وقائع حال تأتي عفوًا بلا تفكير وكد ذهن، غزله وصف أشياء ظاهرة كالألوان والمحسوسات وبعض الحركات، لا يفهم من الحب إلا المادة فقط، فغزله لا يمثل عاطفة بل التهالك على اللذات والاستقتال في سبيلها، غزير المادة، غير متكلف في ألفاظه ومعانيه، شعره كله ترغيب في الفجور، كل هجائه فحش، ونكتته تضحك وتؤلم معًا، جمع جزالة العرب إلى فن المحدثين، ليِّن إذا تغزل أو هزل، متين إذا مدح، مدحه لا يخلو من هجاء.

(٢) أبو نواس:

هو الحسن بن هانئ، تلميذ والبة الحباب.

كنيته: الأولى أبو علي، إنما قال له خلف الأحمر الذي كان شديد الميل إليه: أنت من أشراف اليمن فتكنَّ بالذوين، فتكنَّى بذي نواس.

تربيته: لسوء حظ الأدب، لم ينشأ نشأة صالحة، بل ربي في كنف والبة وأمثاله من الفساق، فكان من شخصيته ما أرانا إياها أدبه وشعره وأخباره.

شخصيته: جميل الصورة، خفيف الروح، فصيح اللسان، هازل، سكير، مستخف في الدين.

لغته: قال الجاحظ: ما رأيت أحدًا أعلم باللغة من أبي نواس ولا أفصح لهجة منه مع حلاوة ومجانبة استكراه.

أثره في الأدب: أحسن بالخروج على خطة الشعر الجاهلي، وترك البكاء على الأطلال، وجعل الشعر شعرًا مصدره الشعور، وأساء إلى الأدب

العربي بنقله الغزل من أوصاف المؤنث إلى المذكر، وتلك جناية ووصمة لا تغتفران له.

امتيازه: تفوق بوصف الخمرة والمجون والغزل والمداعبة؛ غرامية أو غير غرامية.

الخمرة: وصفها كثيرون في كل العصور، ففي الجاهلية وصفها وأجاد عدي بن زيد العبادي، وكانت أبياته تغنى للوليد بن يزيد، وأجاد وصفها الأعشى والأخطل، أما أبو نواس فلم يصفها وصفًا فقط سبَقَ فيه مَن تقدَّمه، بل قدسها تقديسًا:

اثن على الخمر بآلائها وسمها أحسن أسمائها

شعوبيته: عد النقاد له ما سنرويه لك، خروجًا على الأسلوب القديم، ثم عادوا فعدوه «شعوبية». أما الحقيقة فهي أن أبا نواس مستهزئ بكل شيء، فاسمع ما يقول:

عاج الشقي علـــــــــى رسم يسائله	**وعجت أسأل عـــن خمَّارة البلد**

تهتكه: كان خليعًا متهتكًا لا يبالي بحدود الأدب والدين ولا يراعي شيئًا من هذا، قال في الخمر:

ألا فاسقني خمرًا وقل لي هـــي الخمر	**ولا تسقني سرًّا إذا أمكن الجـــهر**

وقال أيضًا:

لا تبكِ ليلى ولا تطرب إلـــــى هندِ واشرَب على الورد من حمراء كالورد
كأسا إذا انحدرتْ في حلق شاربها أجدتْهُ حُمرتَها في العين والخـــــــدّ
فالـخمرُ ياقوتة والكـــــأس لؤلؤة من كف جارية ممشوقة القـــــــــدِ

ومن مجونه: لم يبرع أبو نواس هذه البراعة إلا لأنه صادف أرضًا خصبة وندماء لا ينفكون عن معاقرة الخمرة. ففي ذات ليلة قالوا: أين نجلس الليلة؟ فقال أبو نواس: فلتكن الدعوة شعرًا، والمجيد منا تقبل دعوته. فنظموا

في ذلك وكانوا ستة، فأجادوا جميعًا، فكانت الجلسة في القهوة، ومن مجون أبي نواس، كما روى ابن منظور، قال: كان أبو نواس مع المصلين في المسجد فإذا بالإمام يقول: قل يا أيها الكافرون...فصاح أبو نواس من وراء: لبيك، فأخرج.

(٣) أبو العتاهية:

حياته: أبو إسحاق اسماعيل بن كيسان، ولقبه أبو العتاهية. ولد بالأنبار وكان يبيع الجرار بالكوفة، كان في أول شبابه عشيرًا للخالعين مستهترًا، ثم ظهرت مقدرته الشعرية، فقال الشعر، وطرق أبواب الخلفاء، ونال جوائز المهدي، وأحب جارية للخليفة اسمها عُتبة، فخاب في حبه وتنسك، وصار يقول الشعر في الزهد ويحث على ترك الدنيا وملاذها، ولكنه ظل محبًّا للمال، وعلى زهده بقي يمدح الخليفة ورجال دولته. ثم امتنع عن الشعر، فحبسه الرشيد لأنه لم يلبِّ طلبه، وما أطلقه حتى قال الشعر الذي طلبه منه، وأدرك المأمون وكان من شعرائه وبطانته ينال جوائزه.

آثاره: ديوانه وليس فيه كل شعره.

أغراض شعره: غزل ومدح ورثاء وهجاء وعتاب واستعطاف، ثم ترك هذه كلها ووقف شعره على الزهد والوعظ والحكمة والمثل.

زهده: روي أنه كان يلبس المِسْح ويقضي الليالي ساهرًا مصليًا، ثم يدع المسح ويعود سيرته الأولى لاهيًا، أما مذهبه في زهدياته فمواعظ أدبية ونظرات في الحياة والموت: الدنيا زائلة فلنحتقرها، ولنقنع بما يُقيتنا، وزهدياته تخاطب العقل لا العاطفة والقلب، وزهديات أبي نواس صادرة من قلب محترق طافح بحب الحياة، أما زهديات أبي العتاهية فكثيرة التكلف، صادرة عن العقل، وقد اشتهرت بما فيها من حكمة جامعة.

قريحته: سيالة، وقد قال عن نفسه: لو أردت أن أتكلم شعرًا لتكلمت، ولكن هذه الدعوى ليست بذات بال فالشعر غير النظم، وهو لو قال نظمًا لكان أصدق.

ساحة الملوك: ولأجل كثرة الساقط في شعره، قال أحد النقاد القدماء: شعره ساحة الملوك، في كناستها التراب والذهب.

فنه: شعره سهل جدًّا، ولولا الوزن والقافية لكاد أن يكون نثرًا، وله في فنه سيرة بخلاف شعراء عصره الخلعاء، وهذا ما جعل له هذه الشهرة، ولكن لأبي العتاهية وثبات لا يستهان بها إلا أنها قليلة بالنسبة لشعره الكثير.

(٤) أبو تمام:

نسبه: حبيب بن أوس الطائي، نشأ بجاسم، وهي قرية من ناحية منبج من أعمال حوران. كان يخدم أباه الحيَّاك، ثم ذهب إلى مصر وصار يسقي الماء في جامع عمر، لم يعمَّر كثيرًا، وقد توفي بالموصل، وقبره فيها خارج باب الميدان على حافة الخندق.

صفاته: شاعر مطبوع، فطن ذكي، دقيق المعاني، سبق الشعراء إلى المطابقة، السليم من شعره لا يعلق به أحد، ورديئه رذل جدًّا.

الرأي فيه: مريدوه يفضلونه على كل سابق ولاحق، وكارهوه يحطون من قدره جدًّا، وينسبون إليه سرقة شعر غيره.

معانيه: كان يأخذ كثيرًا منها مما يسمعه، ومنها البيت المشهور:

ليس الحجاب بمقصٍ عنك لي أملًا إن السماء ترجَّى حين تحتجب

أخذه من مخنث يعاتب صديقًا له، واتهمه دعبل أنه أخذ قصيدته التي مطلعها: «كذا فليجل الخطب» من مكنف أبي سلمى، قالها في رثاء زفافة العبسي.

محفوظاته: كثيرة جدًّا، يقال إنه كان ينشد أربعة آلاف أرجوزة للعرب غير القصائد والمقطعات.

كتاب الحماسة: حبسته الثلوج في همذان عند رجوعه من عند الأمير عبد الله بن طاهر من خراسان، فنزل على أبي الوفاء بن سلامة الذي كان له خزانة كتب نادرة، فطالع فيها كثيرًا، وجمع كتابه «الحماسة» الذي قيل في أبي تمام بسببه: «إنه في انتقاء شعر الحماسة أشعر منه في شعره.»

شعره: يفضل تجويد المعنى على تسهيل العبارة. ولما رأى السلاسة تنقصه عمد إلى الجناس والمطابقة والاستعارة، فأثر ذلك في شعره وكان كتكلف ظاهر.

ديوانه: ديوانه جمعه أبو بكر الصولي مرتبًا على الحروف الهجائية، وجمعه علي بن حمزة الأصبهاني مرتبًا على الأنواع.

ذاكرته: غريبة جدًّا، قال البحتري: أنشدت سعيد بن أسلم الطائي قصيدتي: أأفاق صب في الهوى فأفيقا، وكان عنده رجل لا أعرفه، فلما انتهيت، قال لي ذلك الرجل: أما تستحي أن تنتحل شعري وتنشده بحضوري؟ وأنشد القصيدة برمتها، فتغير وجه سعيد وخرجت من عنده كاسف البال. وبينا أنا كذلك إذا برجل يدعوني ضاحكًا، فإذا هو أبو تمام وقال: «الشعر لك» وإنما هذه عادتي أحفظ القصيدة من مرة.

بائيته المشهورة:

قالها بالمناسبة الآتية: زحف توفيل بن ميخائيل ملك الروم على البلاد الإسلامية، حتى بلغ زبرطة، مولد المعتصم، وأغار على ملطية وغيرها، فقتل وسبى كثيرين، ومن جملة السبايا كانت امرأة هاشمية لطمها رومي على وجهها، فصاحت «وا معتصماه.» فلما بلغ المعتصم الخبر كانت بيده كأس فطرح الكأس وصاح لبيك لبيك! ثم جهز جيشًا عرمرمًا زحف به على بلاد الروم حتى بلغ عمورية، فحاصرها ورماها بالمنجنيق ودخلها وقتل نحو ٩٠ ألفًا منها، وهنا لا بد من هذه الحكاية، فنوردها ملخصة جدًّا؛ قالوا:

عندما طال الحصار على عمورية، جمع المعتصم المنجِّمين، فقالوا: إنها لا تفتح إلا في زمن نضج التين والعنب. وظهر في ذلك العام نجم مذنَّب تقوَّل المنجمون فيه، وزعموا مزاعم كثيرة. أما عمورية ففتحت قبل الزمان الذي حدده المنجمون، فقال أبو تمام قصيدته الرائعة، وفيها ردَّ على المنجمين وغيرهم، وإليك منها ما يشير إلى الحوادث:

السيف أصدق أنباءً من الكتب في حده الحد بين الجـــــــد واللعب
والعلم في شهب الأرماح لامعة بين الخميسين لا في السبعة الشهب
أين الرواية بل أين النجوم وما صاغوه من زخرف فيـــها ومن كذب

يبدع أبوتمام –عادةَ– في وصف المرئيات، يشخِّص كل شيء، ومتى اتقدت عاطفته اختفى التكلف الذي يظهر في أكثر شعره. وقد اشتد الإعجاب به من أجل قصيدته الأولى: السيف أصدق... إلخ، التي سبق ذكر بعضها، والثانية في حرق الأفشين ومطلعها: الحق أبلج والسيوف عوار، ولعل أبا تمام هو أول الذين دخلوا موضوعهم رأسًا، بدون «مقبلات».

عصر الدويلات المتتابعة:

من العسير تحديد أطوار الأدب في عصر الدول المتتابعة بسنوات معينة، لتداخل بعضها ببعض. ويمكن تحديد إطار هذا الموضوع بالحكم الذي ساد في كل حقبة من حقب ذلك العصر، وهي:

١- العهد الزنكي ٥٢١-٥٧٩هـ/١١٢٦-١١٨٣م.

٢- العهد الأيوبي ٥٧٩-٦٤٨هـ/١١٨٣-١٢٥٠م.

٣- العهد المملوكي ٦٤٨-٩٢٢هـ/١٢٥٠-١٥١٧م.

٤- العهد العثماني ٩٢٢-١٢١٣هـ/١٥١٧-١٧٩٨م.

ذلك هو الإطار الزماني، أما الإطار المكاني، فهو موطن حكم هذه الدول، وهو بلاد الشام ومصر، في المقام الأول، وبعض أرجاء الجزيرة العربية كالحجاز واليمن، أما ما كان خارج هذه البلاد في العصر العثماني فلا يدخل في إطار البحث، لأن المراكز الثقافية والفكرية والأدبية الكبرى كانت في أرض الشام ومصر في الدرجة الأولى، ولعل معالم العهد الزنكي والعهد الأيوبي والعهد المملوكي متقارب بعضها من بعض أكثر من قربها من معالم العهد العثماني.

ومن هذه المعالم أن اللغة العربية ظلت لغة رسمية للزنكيين والأيوبيين والمماليك، مع أن أصولهم غير عربية، ولغاتهم الأصلية غير عربية. أما في العهد العثماني، فقد غدت التركية لغة الدولة الرسمية، وبها تكتب المراسلات والمعاهدات والمعاملات، ثم تأتي بعدها في المقام الثاني

اللغة الفارسية، وتدرّس في المدارس، ويتحدث بها كثير من المثقفين والحكّام، ثم تأتي العربية في المقام الثالث، والدولة العثمانية لا تحاربها، ولا تقف عقبة في وجه من يسعى إلى تعلمها، لأنها لغة القرآن والإسلام، ولهما في النفوس أرفع مقام. يضاف إلى ذلك أن السلاطين العثمانيين استولوا من مصر والشام على خير ما في خزائن كتبهما كما أخذوا إلى العاصمة اصطنبول خيرة علماء العربية ومهرة الصناع والحرفيين. وكان ذلك سبباً في تراجع الاهتمام وتدهور اللغة وتفشي اللحن والعامية والجهل والأمية إذ خلا البلدان ممن يرفع من شأن العربية.

اهتم الزنكيون والأيوبيون والمماليك بإنشاء المدارس، وحث الطلبة على العلم، ورصد المكافآت المغرية للمبرزين، وتكريم العلماء، وتوفير المناخ الطيب لإنتاجهم، وكان بناء المساجد يساير حركة بناء المدارس، والمساجد في عهدهم مواطن للعلم والدرس إلى جانب كونها للعبادة. وقد عرف الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي بولعه بإنشاء المدارس المنظمة، وعمارة المساجد، حتى إنه استقدم من سنجار أحد المهندسين المهرة ليبني له المدارس الفائقة في حلب وحماة وحمص وبعلبك ويشرف على صيانتها. كما عرف بحبه للحديث الشريف، فأنشأ له مدارس خاصة، وأوقف عليها أوقافاً كبيرة، وولى مشيختها أكابر المحدثين في زمانه، كالحافظ أبي القاسم علي بن عساكر.

وبذّ صلاح الدين الأيوبي سلفه نور الدين في الإنفاق على التعليم وإنشاء المدارس الكثيرة في مصر والشام، وقد حملت جميعاً اسم «المدرسة الصلاحية»، واشتهر صلاح الدين بأنه أعظم مشيد لدور العلم في العالم الإسلامي بعد نظام الملك السلجوقي، وأصبحت دمشق في عهده تدعى «مدينة المدارس»، وقد وصف ابن جبير، في رحلته، هذه المدارس، ووجدها قصوراً أنيقة، ومن أحسن مدارس الدنيا منظرا.

وسار خلفاء صلاح الدين على سنته، فابتنوا مدارس كانت كل منها تنسب إلى بانيها، مثل: الظاهرية والصاحبية والعادلية والأشرفية والناصرية، وحتى نساء بني أيوب شدن عدداً من المدارس، كان منها «الشامية» و«الخاتونية»، وكذلك فعل كبار تجار العصر.

جاء عصر المماليك، وراح الحكام يتنافسون في إنشاء المدارس، حتى إن ابن بطوطة عجب من كثرتها، وذكر أنه لا يحيط بحصرها لكثرتها. وذكر من هذه المدارس: الظاهرية والمنصورية ومدرسة السلطان حسن، والسلطان برقوق، والمؤيد شيخ، وسواها.

أما في العصر العثماني فقد انقطع إنفاق الدولة على هذه المدارس كلها، ولم يبتن الحكام مدارس جديدة، وإنما تركوا الحبل على الغارب، فذوت تلك المدارس وأخذ عددها يتناقص يوما بعد يوم، وحل محلها كتاتيب صغيرة تعلم مبادئ القراءة والكتابة والحساب. كما تعلِّم القرآن الكريم وتجويده، حتى إذا أوغل الحكم العثماني في الزمن، ران الجهل على البلاد العربية المحكومة، وصار من النادر وجود من يحسن القراءة والكتابة فيها.

وفي عهد الزنكيين والأيوبيين والمماليك، ازداد عدد العلماء والشعراء والكتاب والمؤلفين زيادة كبيرة لأسباب، منها هروب العلماء والأدباء من شرقي العالم الإسلامي إلى مصر والشام إثر اجتياح التتار، وهروب العلماء والأدباء من غرب العالم الإسلامي (الأندلس) إلى مصر والشام، بعد اجتياح الإسبان للدولة الأندلسية المسلمة، ومن تلك الأسباب الاستقرار الأمني الذي تمتعت به بلاد مصر والشام في عهد الأيوبيين والمماليك، ورعاية حكامها للعلماء والأدباء، وتوفير المناخ العلمي والحياة الكريمة لهم مع الإجلال والاحترام.

وكان من نتيجة هذه العوامل أن استطاع العلماء تعويض المكتبة العربية الإسلامية بعض ما ضاع منها حرقاً أو إتلافاً أو سرقة، وكانوا في

تأليفهم يعتمدون على ما وصل إليهم من العصور السابقة فيقومون بتصنيفه وترتيبه وتدوينه في كتب جامعة تقرب من الموسوعات. وكثرت في هذا العصر الشروح والذيول والحواشي، حتى سمي بعصر التحشية. لكن هذه الحقبة الخصبة نسبياً لم تستمر في عهد العثمانيين، وإنما اتخذ الشعر والتأليف مسار آخر، فيه من العقم أكثر مما فيه من الخصب. وكان لديوان الإنشاء، في عهد الأيوبيين والمماليك، أثر بالغ في النهضة العلمية، وازدهار الثقافة، لما كان فيه من إغراءات، وحوافز. وحين أبطله العثمانيون وأحلوا التزكية في الدواوين محله، تدهورت الثقافة، وانعدمت الحوافز، وساءت الكتابة بوجه عام.

فنون الشعر:

الموضوعات التقليدية: أخذ شعراء هذه الحقبة معاني القدماء وصاغوها صياغة جديدة، وسبكوها في القوالب التقليدية المتداولة، فإذا وصف الشاعر القديم ممدوحه بأنه بحر أو غيث أو أسد أو شمس أو قمر أو متوج بتيجان الملوك أو تقي أو سليل أكارم وأماجد أو حام للدين وأهله، أو مذل للشرك وقومه...جاء الشاعر اللاحق فاتبع سنن الشاعر السابق من دون أن يحيد عما جاء به قيد أنملة، كأن يضع نصب عينيه مقولة: «ما ترك الأول للآخر شيئا».

وكان أمام الشاعر المتأخر، اللاحق، رصيد من المعاني والصور خلفها القدماء، في المديح والفخر والغزل والهجاء...وتقتصر مهمة هذا الشاعر المتأخر أن يتطفل على هذا الرصيد فيأخذ منه ما يحتاج، ويزعم بعد ذلك أنه جاء بقصيدة.

كان السابق (الشاعر الأصيل) يتمثل الصورة الكلية لموضوعه، ويحيطها بدفء عواطفه وحرارة مشاعره، فتبدو حية نابضة متلألئة. أما اللاحق فهو أشبه ما يكون بالجزار يقطع من هذه الكتلة أو تلك، ويضم بعضها إلى بعض بعيداً عن خلجات قلبه وحرارة أنفاسه. مثل السابق قصيدة أبي تمام في فتح عمورية ومديح المعتصم، أو قصيدة أبي الطيب المتنبي في وصف معركة الحدث ومديح سيف الدولة، ومثل اللاحق قصيدة أبي منير الطرابلسي (ت٥٤٨هـ) في مدح نور الدين وانتصاره على الصليبيين، وقصيدة ابن الساعاتي (ت٦٠٤هـ) في فتح صلاح الدين بيت المقدس. وقد كان التفاوت كبيراً في جودة قصائد السابقين وقصائد اللاحقين وابتكار المعاني ومتانة الأسلوب.

وقد تهافت شعر المديح في العصر العثماني، وانحط إلى دركة مزرية، ولم يعد الشاعر يجد من يتوجه إليه بقصائده.

ولم يكن فن المديح في هذه العصور إلا كالفنون الأخرى من الشعر اتباعاً وتقليداً ووهنا، وإذا كان ثمة من فرق فهو في بعض مقدمات القصائد، إذ انحرفت إلى الغزل بالمذكر، أو قد يكون فخراً بمقتنيات كالدور والملابس والخدم والحشم، كفخريات منجك (ت١٠٨٠هـ) أو قد يكون هجاء للبعوض والفئران والصراصير، كقصيدة جعفر البيتي (ت١٠٥٢هـ) وقد أكثر هؤلاء الشعراء من وصف الأفيون وأثره في العقل والجسم.

الموضوعات المستحدثة: إلى جانب هذه الموضوعات التقليدية ظهرت موضوعات أخرى تتصل بسبب أو بآخر بما سبق من موضوعات وتتخذ لنفسها، في الوقت ذاته، مسارا مختلفا له حدوده وقيوده، مما جعل المتأمل فيها يصفها بالجديدة المستحدثة، من هذه الموضوعات ما يلي:

. **المدائح النبوية والاستغفار:**

جاء الغزاة الأوربيون إلى الشرق محتلين باسم الصليب، وجاء المغول ودمروا معظم معالم الحضارة العربية والإسلامية، وعمت الأوبئة والطواعين مصر والشام مرارا، وعم خلاف سلاطين بني أيوب والمماليك بعضهم مع بعض، وكان استبداد الحاكمين في رقاب الناس بالغاً، والحياة الاقتصادية في انهيار واضطراب. كل ذلك شجع على انطواء كثير من الناس على أنفسهم، وانعزالهم عن مجتمعاتهم، ولجوئهم إلى الله داعين مستغفرين، ومتقربين إليه بمديح الرسول وآله وصحبه، وانتشرت القصائد الكثيرة في مدح الرسول والتشفع به، وكذلك القصائد الطوال في الابتهال والاستغفار،ومن قصائد مدح الرسول ما سمي بالبديعيات، ويعد صفي الدين الحلي (ت٧٥٠هـ) أول من نظمها وأول من أضاف إلى كل بيت لونا من ألوان البديع وذلك في بديعيته التي استوحاها من قصيدة البوصيري (ت٦٩٦هـ) المشهورة بالبردة ومطلعها:

أمن تذكر جيران بذي سلم مزجت دمعا جرى من مقلة بدم

ولما كانت قصيدة البوصيري «البردة» قد اقترنت برؤيا الرسول الكريم e في المنام، وبأنه ألقى عليه بردته ونهض الشاعر بعدها معافى من فالج ألم به، استدل الناس والشعراء على رضا الرسول –صلى الله عليه وسلم– عن القصيدة، ومن هذا الباب راح الشعراء ينظمون القصائد على منوال «البردة» تقرباً من الرسول وطمعاً في شفاعته وتدفق السيل، فإذا مئات القصائد على توالي العصور تظهر متقيدة بمعاني بردة البوصيري وبحرها العروضي وميم رويها المكسورة، حتى إن كثيرا من المسلمين كانوا يوصون أن تكتب بعض أبيات البردة أو إحدى البديعيات على شواهد قبورهم تقرباً إلى الله وزلفى. ولم يكن مدح الرسول بدعاً في الشعر في هذا العصر ولا مستحدثاً، ولكن الجديد في الأمر هو الإفراط، فقد فاق ما قيل في هذا الموضوع جميع ما قيل في الموضوعات الأخرى في العصر كله.

ولقد اعتاد المدّاحون أن يستهلوا قصائدهم بالغزل وما يتصل بالشكوى من الفراق والهجر ونحو ذلك، أما في هذه المدائح فلهم استهلال آخر أوضحه ابن حجة في الخزانة فقال: «يتعين على الناظم أن يحتشم فيه ويتأدب، ويتضاءل ويتشبب مطرياً بذكر سلع ورامة وسفح العقيق والغدير ولعلع وأكناف حاجر، ويطرح ذكر محاسن المرد والتغزل في ثقل الردف ورقة الخصر وبياض الساق وحمرة الخد وخضرة العذار وما أشبه»، هذا اللون من الشعر أكثر عافية، وأقوم أسلوبا، وأكثر صدقا، وأجزل لغة من شعر العصر في الأغراض الأخرى. وكان من أعلام هذا الفن الإمام الصرصري (ت٦٥٦هـ) والبوصيري وابن معتوق (ت٧٠٧هـ) والشهاب محمود الحلبي (ت٧٢٥هـ) وابن الوردي (ت٧٤٩هـ) والإمام البرعي (ت٨٠٣هـ) ومجد الدين الوتري (ت٩٨٠هـ).

. الشعر الصوفي: هو ضرب من الشعر الديني، بينه وبين المديح النبوي والبديعيات وشائج وصلات، لكنه يتخذ مساراً يختلف عن مساريهما معنى ومبنى، أما المعنى فيقوم على الحب الإلهي، وهذا الحب عماده وجوهره وغايته وثمرته. والحب، في عرف أصحابه، حالة ذوقية تفيض على قلوب المحبين، مالها سوى الذوق إفشاء، ولا يمكن أن يعبر عنها إلا من ذاقها، ومن ذاقها ذاهل عن كنهها، كمثل من هو طافح سكراً، إذا سئل عن حقيقة السكر الذي هو فيه لا يمكنه التعبير لأنه سكران. والفرق بين سكر المحبة وسكر الخمرة أن سكر الخمرة يمكن زواله، ويعبر عنه في حين الصحو، وسكر المحبة ذاتي لازم، لا يمكن لصاحبه أن يصحو منه حتى يخبر فيه عن حقيقته.

أما المبنى فيقوم على ثلاث دعائم، هي الغزل العذري والخمريات والرمز وقد عرفت هذه العصور شعراء كباراً متصوفين، منهم السهروردي

(ت٥٨٧هـ) وابن الفارض (ت٦٣٢هـ) وابن عربي (ت٦٣٨هـ) وأبو العباس المرسي (ت٦٨٦هـ) والعفيف التلمساني (ت٦٩٠هـ) وابن عطاء الله السكندري (ت٧٠٩هـ) وعائشة الباعونية (ت٩٢٢هـ) وغيرهم.

. التأريخ الشعري: ويقوم على «حساب الجمل» في ضبط تاريخ واقعة بحروف تتألف منها كلمة أو جملة أو شطر، يكون مجموع جملها يساوي تاريخ تلك الواقعة، ويأتي الشاعر بهذه الكلمة أو الجملة بعد كلمة «أرّخ» أو مشتقاتها، وترتب الحروف ترتيبا أبجديا، أي: أبجد، هوز،حطي، كلمن، سعفص، قرشت، ثخذ، ضظغ، وكل من هذه الحروف له قيمته العددية، والجديد في هذا اللون أن العصر العثماني فاض به، حتى نظم به كل من كان ذا قدرة على النظم، وأن بعض الشعراء أتوا بالعجب العجاب، وفي كتاب «سلافة العصر في محاسن الشعراء بكل مصر» لابن معصوم قصيدتان في التأريخ الشعري كل منهما آية في بابها.

. الشعر التعليمي (نظم العلوم): شاع في العصر المملوكي والعثماني (نظم العلوم)، فعلم النحو يسبك في ألفية، والفقه كذلك، والفرائض والمنطق وسواها، وغالباً ما تكون هذه المنظومات من بحر الرجز ليسهل حفظها. وقد يأتي بعض العلماء إلى واحدة من هذه الأراجيز فينشئ عليها شرحا، ويأتي آخر ويضع حاشية، وثالث يكتب حاشية على الحاشية، وخير مثال على ذلك ألفية ابن مالك.

. الأحاجي والألغاز: لم يسلم منها شاعر، ولم يخل منها ديوان، وكانت عنواناً على قدرة الشاعر على اختراع صورة لفظية تتوارى المعاني وراءها، وهي وسيلة من وسائل التسلية في المجالس، وربما عمد صاحبها إلى مكاتبة

إخوانه بها، وطلب منهم أن يحلّوها. وتذهب الرسالة الحاملة للقصيدة اللغزية من بلد إلى بلد، وغالباً ما يعود الجواب بحل اللغز في قالب شعري، ويكون متبعاً بلغز آخر يطالب صاحبه بحلّه، وهكذا. كان من أعلام هذا اللون صفي الدين الحلّي والشَّرف الأنصاري وابن عنين (ت٦٣٠هـ) ومحيي الدين بن عبد الظاهر (ت٦٩٢هـ) وإبراهيم بن عبد الله القبراطي (ت٧٨١هـ) وابن حجة الحموي (ت٨٣٧هـ).

. شعر الحشيشة: وقد أصبح هذا الغرض الجديد كالخمرة من أغراض الشعر، وأحد الموضوعات التي قالوا فيها القصيد.

. النقد الاجتماعي: اتخذ هذا اللون في الغالب، صورة الشعر الضاحك تارة والساخر أخرى والمر في ثالثة. فالوضع السيء الذي كان يعيش فيه الناس، والشعراء منهم، من فقر وبؤس ومصادرات واستبداد وقطع طرق وانتشار لصوص، واستيلاء أعاجم على حكم الأرض العربية، وفساد في الدوائر، وانتشار رشوة، وما أشبه ذلك، دفع الشعراء إلى التعبير عن هذه المآسي بشيء من التّقيّة حيناً، والصراحة حيناً آخر، بهذه القوالب المنظومة.

ومن الشعراء الذين اشتهروا بالنقد ابن قلاقس (ت٥٦٧هـ)، وابن عنين،وأبو الحسين الجزّار (ت٦٧٩هـ)، والبوصيري، وابن دانيال (ت٧١٠هـ) والحلّي، وابن سودون اليشبغاوي (ت٨٦٨هـ)، وعامر الأنبوطي.

الخصائص العامة لشعر العصر: ضعفت ثقافة الشعراء في ذلك العصر، وضحلت محفوظاتهم ومعلوماتهم، وانصرف الشاعر عن امتهان الشعر، واتخذه هواية وتسلية: فقد يكون قاضيا أو معلما أو كحّالاً أو ورّاقا أو جزّارا، فهو ينصرف إلى مزاولة مهنته أولاً، ثم يعاني نظم الشعر، وقد انفصل

الشاعر عن مجتمعه وحكّام زمانه، وكان هذا الانفصال نتيجة وليس سبباً، فقد كان ينظم بلغة، ويتحدث هو وأبناء عصره بلغة أخرى. وكان بين لغته ولغة الناس بون شاسع، حتى لتوشك لغة النظم أن تصبح لغة أجنبية لدى الناس، كذلك طغت الركاكة والتعبيرات العامية على الشعر. والركاكة غير العامية، فهي تنشأ عن عدم تمكن الشاعر من اللغة التي يكتب بها لافتقاره إلى معرفة أصولها وأسرارها ودقائق الفروق بين مفرداتها: إنها – أي الركاكة – العجز عن استعمال اللغة بدقة ومهارة، والاستعاضة عنها بالعامية والعبارات السوقية.

وقد ارتبط شاعر العصر بالتراث والماضي، وكان يضع نصب عينيه مقولة: «ما ترك الأوائل للآخر شيئاً». ولذلك كان ينهج نهج السلف تفكيراً وتعبيراً. وافتقد العصر النقاد الفنيين الذين يقومون لكل شاعر إنتاجه. وكان علماء البلاغة أقدر من سواهم على أداء هذه المهمة، لكنهم انصرفوا إلى المنطق، وإلى جزئيات لا تسمن ولا تغني، فأضاعوا الغاية من البلاغة، كما أضاعوا البلاغة ذاتها. واستعاض شاعر العصر عن الابتكار والتجديد بالمبالغات الكبيرة التي تصل إلى حد الإغراق والغلو الذي يرفضه العقل وتأباه العادة، وينكره الذوق.

واتكأ الشاعر على ألوان المحسنات البديعية بدلاً من أن يبدع فكرة، أو يجود في تعبير. ووصل اقتران البديع إلى أقصاه في البديعيات، وهي قصائد مطوّلة، تزيد على خمسين بيتاً، منظومة على البحر البسيط، تكون الميم المكسورة فيها رويا ويحمل كل بيت لونا من ألوان البديع، مذكوراً صراحة أو ضمنا، ومعانيها تدور حول السيرة النبوية. وقد أوجدت هذه البديعيات حركة أدبية نشطة في اللغة والأدب وحركة التأليف فكثر شارحوها والمعلِّقون عليها، كما كثرت في الدراسات التاريخية إذ أظهر المؤرخون ما تضمنته من إشارات دينية وتاريخية. وأثرت في الحركة الأدبية، فكثر

تشطيرها وتضمينها وتخميسها وتسبيعها، وتعشيرها ومعارضتها. وانتقلت البديعيات إلى لغات العالم الإسلامي فنظم الأتراك والفرس والهنود بديعيات بلغاتهم، ونظم النصارى بديعيات في عيسى عليه السلام، وزادت الصنعة ذلك عند بعض الشعراء فغدا كثير من الشعر ألاعيب لفظية من جناس وتورية وشعر محبوك وشعر منظوم من حروف مهملة أو حروف معجمة، أو موصولة أو مفصولة، أو تحتوي كل كلمة على حرف معين، أو تحمل الكلمة معنيين، معنى ظاهراً وآخر باطناً، هو اسم كتاب، أو لغز، أو واقعة، أو يقرأ البيت طرداً، وعكساً فإذا هو شيء واحد، أو تكون قراءة الطرد مدحاً وقراءة العكس ذماً، أو يكون فيه تشجير أو اقتباس أو تضمين أو رد أعجاز على صدور، أو غير ذلك من الألاعيب والشكليات. كذلك خرج عدد من شعراء العصر إلى أوزان جديدة، دفع إليها التعبير العامي والركاكة، ومن الأوزان: المواليا والزجل والقوما والكان كان ونحوها.

أعلام الشعر في هذا العصر: يعثر الباحث في هذه الحقبة من التاريخ العربي على أسماء للشعراء لا حصر لها. فقد ظهر إبان الحكم الأيوبي ابن قسيم الحموي، مسلم بن الخضر التنوخي (ت٥٤٢هـ). ابن القيسراني، محمد ابن نصر (ت٥٤٨هـ). ابن منير الطرابلسي، أحمد (ت٥٤٨هـ). عرقلة الدمشقي، حسان بن نمير الكلبي (ت٥٦٧هـ). ابن قلاقس نصر الله عبد الله (ت٥٦٧هـ). سبط بن التعاويذي (ت٥٨٣هـ). ابن المعلم، محمد ابن عبيد الله (ت٥٩٢هـ). ابن الساعاتي، علي ابن محمد بن رستم (ت٦٠٤هـ). ابن النبيه، علي بن محمد بن يوسف (ت٦١٩هـ). ابن عنين، محمد بن نصر بن الحسين (ت٦٣٠هـ). ابن الفارض عمر بن علي (ت٦٣٢هـ) الحاجري، عيسى بن سنجر (ت٦٣٢هـ)، ابن عربي، محيي الدين (ت٦٣٨هـ). ابن

مطروح، يحيى بن عيسى (ت٦٥٠هـ). البهاء زهير بن محمد المهلبي (ت٦٥٦هـ).

وتطالعنا في عصر المماليك أسماء كثيرة من أشهرها: شرف الدين الأنصاري، عبد العزيز ابن محمد (ت ٦٦٢هـ). الصرصري، يحيى بن يوسف (ت٦٥٦هـ). التلعفري، محمد بن يوسف (ت٦٧٢هـ). الجزار، يحيى بن عبد العظيم (ت٦٧٩هـ). الشاب الظريف، محمد ابن سليمان (ت٦٨٨هـ). الوراق،عمر بن محمد (ت ٦٨٨هـ). البوصيري، محمد بن سعيد (ت٦٩٥هـ). ابن دانيال، محمد (ت٧١٠هـ)، ابن الوردي، عمر بن مظفر (ت٧٤٩هـ). صفي الدين الحلي، عبد العزيز بن سرايا (ت٧٥٠هـ). ابن نباتة، محمد بن محمد (ت٧٦٨هـ). البرعي، عبد الرحيم بن أحمد (ت٨٠٣هـ). ابن سودون، علي (ت٨٦٨هـ). ابن مليك الحموي، علي بن محمد (ت٩١٧هـ). الباعونية، عائشة بنت يوسف (ت٩٢٢هـ).

أما أشهر شعراء العصر العثماني فهم: عبد الله بن أحمد باكثير (ت٩٢٥هـ). شهاب الدين العناياتي (ت١٠١٤هـ). فتح الله النحاس الحلبي المدني (ت١٠٥٢هـ). ابن معتوق، شهاب الدين الموسوي (ت١٠٨٧هـ). منجك اليوسفي الدمشقي (ت١٠٨٠هـ). ابن النقيب الحسيني (ت١٠٨١هـ). مصطفى الباني الحلبي (ت١٠٩١هـ). عبد الغني النابلسي (ت١١٤٣هـ). عبد الله الشبراوي (ت١١٧١هـ). أحمد المنيني الطرابلسي (ت١١٧٢هـ). عامر الأنبوطي (ت١١٧٣هـ). جعفر البيتي المدني (ت١١٨٢هـ). عبد الله الأدكاوي المصري (ت١١٨٤هـ).

النثر:

كان الشعر في العصر العباسي في أزهى أيامه، ثم راح ينحدر قليلاً في العصور التالية، حتى إذا كان العصر العثماني كاد يلفظ أنفاسه.

أما النثر الفني، والكتابة الأدبية، فقد بدأ انحدارهما منذ أيام العميد (ت٣٦٠هـ) والصاحب بن عباد (ت٣٨٥هـ) الذي كان يتساهل بضياع دولة ولا يتساهل بهروب سجعة من أسلوبه، والحريري (٥١٦هـ) الذي أشاع في مقاماته حب مطاردة السجع والجناس والزخارف في شتى صورها ليوقعها في شباك كتابته،حتى لا تند منه سانحة أو بارحة. ويقتفي الخطيب الحصكفي (ت٥٥١هـ) خطا أرباب التعقيد والتصنع واصطياد المحسنات اللفظية أو المعنوية من الذين سبقوه زماناً، فإذا هو يبذهم ويخرج إلى الناس برسائل وخطب ليس فيها إلا هذه القشور، أما اللباب والمعاني المبتكرة والأفكار المبدعة فلا وجود لها ولا أثر.

فنون النثر: مجالات النثر كثيرة، ولعلها أرحب مما هي في الشعر وأوسع دائرة وأكثر حرية، وبالنثر يستطيع الإنسان التعبير عما يريد بيسر وسهولة أكثر من الشعر المنظوم الموزون. وحصراً لمجالات النثر يمكن القول: إنها تدور في: رسائل وكتابات ديوانية رسمية، ورسائل ومكاتبات إخوانية، ومقامات أدبية، وخطب منبرية، ومؤلفات علمية. ويمكن القول كذلك: إن معظم الكتابات الديوانية، والرسائل الإخوانية، والمقامات الأدبية، والخطب المنبرية، طبعت بطابع العصر الذي كتبت فيه، وحملت سماته وصفاته، من كلفة وتصنع مقبول، إلى كلفة وتصنع ومبالغة في اصطياد المحسنات البديعية على حساب المعنى، سواء أكتبت تلك الآثار في العصر الأيوبي أم المملوكي أم العثماني. وإن في تقليب آثار هذه العهود شاهداً على هذا الحكم.

أما المؤلفات العلمية، فإن أكثرها ما كان يعبأ بتلك المحسنات، لأنها تبعد القارئ عن فهم المراد من المعنى، وعن الوقوف على دقائق الأمور التي يتحدث الكاتب المؤلف عنها.

وإنه لمن العسير في هذا المقام استعراض أسلوب كل مؤلفات هذه الحقبة وقد تجاوزت الآلاف عدداً، والمئات علوماً وفروعاً. وقد عوض مؤلفوها المكتبة العربية التي نهب الصليبيون كثيراً منها، ثم أحرق المغول ما تبقى فيها، وضاع منها ما ضاع بفعل الكوارث والخلافات الفكرية والمذهبية، كما أن هذه الحقبة تعد أغنى حقبة في الحركة التأليفية في العصور العربية.

لقد ضاع أكثر الأصول التي نقلوا منها واعتمدوا عليها، ولم يبق إلا ما تركه أبناء هذه العصور، وخير مثل على ذلك تلك الأصول التي اعتمد عليها ابن منظور (ت٧١١هـ) أو جلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ) أو مؤلفو الموسوعات كالقلقشندي (ت ٨٢١هـ) في مؤلفه «صبح الأعشى» أو العمري (ت٧٤٨هـ) في «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار»، أو النويري (ت٧٣٢هـ) في «نهاية الأرب في فنون الأدب»، وغير ذلك كثير. ويكفي القول إن كتاب حاجي خليفة «كشف الظنون» وحده، ذكر أسماء ثلاثمئة علم، في خمسة عشر ألف كتاب، ألفها عشرة آلاف عالم، معظمهم كان من أبناء هذه العصور.

خصائص النثر وأعلامه: كان من أشهر العلماء والكتاب الذين عاشوا في العصر الأيوبي والمملوكي القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني (ت٥٩٦هـ) والعماد الأصبهاني (ت٥٩٧هـ) وكلاهما كتب للأيوبيين، وإن كان القاضي الفاضل قبل ذلك قد كتب للفاطميين بمصر في ديوان الإنشاء. وقد تآلف هذان الرجلان في حياتهما وعقدت الصداقة بينهما أواصر المحبة، وقد تآلفا كذلك في أسلوبهما الأدبي، حتى لكأن هذا ذاك، وكتابة ذاك هي كتابة هذا. وربما جاز القول:إن القاضي والعماد طبعا العصر الأيوبي والمملوكي بطابعيهما، وكانا المثل الأعلى لكل كتّاب العصر الذي تلا. لقد ورثا من العصور السابقة، ولاسيما العصر العباسي، ما تواضع عليه أكابر

الكتّاب كابن العميد والصاحب والحريري والمعري (ت٤٤٩هـ) والتبريزي (ت٥٠٢هـ) والحصكفي من تكلف وتصنع وتعقيد واصطياد للسجع أو الجناس أو غير ذلك من هذه الألوان البديعية، ثم زادا على ما ورثا ما أبدعته قريحة كل منهما: فبلغ الجناس المعكوس،على أيديهما، ذروته، ومالا يستحيل بالانعكاس يكثر ويتعاظم، والتلاعب اللفظي يعم ويطغى. إلى جانب ذلك كله كانت ترى بعض التعابير الرشيقة، والصور اللطيفة، وبعض الكتابات الخفيفة الظل، مما يشهد لهما بحسن الذوق ودقة الصناعة والقدرة على اجتذاب القارئ. وظلت مدرسة الرجلين في الأسلوب قائمة في عصر المماليك، وكان ديوان الإنشاء أكبر حافز لشداة الجاه والرزق والشهرة والوزارة والقرب من السلطان، وكان القلقشندي المعين الأكبر لهؤلاء الطلبة على معرفة ما يوجبه الانتساب إلى ديوان الإنشاء من علوم ومعارف وأساليب. وكان كتابه «صبح الأعشى في صناعة الإنشا» خير دليل على هذه المواصفات.

وقد برز في هذا العصر صوت شاذ يحارب طريقة القاضي الفاضل والعماد الكاتب وينعى على المتكلفين طريقتهم، ويقف في وجه هذه الأساليب، ذلك هو صوت ضياء الدين بن الأثير الجزري (ت٦٣٧هـ) ولاسيما في كتابه «المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر»، وقد امتازت كتابته هو ممن ذكروا بالتجديد، وكانت أفكاره في كتابه المذكور ثورة في الإنشاء الأدبي في عصره، إذ خالف الأساليب المتبعة وحمل على أصحابها، ولدى التدقيق في أسلوب ابن الأثير يتضح اعتماده في شتى كتاباته العامة والخاصة والإخوانية والديوانية الرسمية أو التأليفية على أسلوبين اثنين: أسلوب مسجع، وأسلوب مطلق. أما السجع فغلب على نثره الديواني، وهو كتاب في الديوان، وعلى نثره الإخواني. وأما المطلق فقد استخدمه في تصانيفه، ولاسيما في «المثل السائر»، وفيه ابتعد عن السجع واللعب بالعبارات والإكثار من المحسنات اللفظية، لقد وظّف ابن الأثير الألفاظ في خدمة المعاني، وأتى بآراء جديدة،

تكاد تكون اليوم معتمدة وأساسية لدى معظم النقاد المعاصرين، منها: أن السجع يكون مقبولاً إذا كان طبيعياً ومعتدلاً، وأن يكون فيه اللفظ تابعاً للمعنى، وأن غرائب الألفاظ تشين الكتابة الأدبية وينبغي تحاشيها، وأن الكلفة والتصنع في تأليف العبارة يوديان بقيمتها وأثرها. وفي الحق، إن ابن الأثير حاول أن يعدل بتلك الأساليب المنتشرة في ذلك العصر نحو الاتجاه السليم، لكن طغيان التقليد والتصنع جعل محاولته زوبعة في فنجان.

أما في العصر العثماني، فقد سبق القول إن اللغة العربية انزوت في كتاتيب ومدارس صغيرة، وغدت اللغة الثالثة بعد التركية والفارسية، إضافة إلى إلغاء ديوان الإنشاء أصلاً، وإحلال اللغة التركية محل العربية، وعدم تشجيع السلاطين على العلم والأدب والإجادة في التعبير، وعم الفقر والجهل مختلف الربوع، مما أدى إلى تدهور الكتابة، بل تدهور العلم في شتى ألوانه وضروبه، اللهم إلا بعض قبسات مضيئة في هذا العصر القاتم.

العصر الأندلسي:

الأندلس والمغرب جزءان مترابطان من عالم واحد كان يعرف في القديم عند المشارقة بالمغرب الإسلامي، وقد ظلا يتمثلان طوال العصور الوسطى حضارة واحدة مشتبكة العلاقات في السياسة والفكر والاجتماع. وفي العلاقات البشرية المستمرة من هجرة واختلاط وتزاوج، وقد كونت صقلية مع بلاد المغرب وشمالي إفريقية والأندلس وحدة ثقافية ذات طابع خاص جوهره التراث الثقافي العربي الإسلامي، وساعد في حفظه كثرة الانتقال والاتصال.

وقد أدت الأندلس وصقلية دورا بارزا في النهضة الأوربية عن طريق نقل هذا التراث كما يشهد بذلك الباحثون، مما يجعل الحديث عن فضل الحضارة العربية الإسلامية من الوقائع التاريخية الثابتة.

وكان للأندلسيين عناية خاصة باللغة وعلومها وآدابها، إضافة إلى الفقه وعلوم الشريعة، وقد استقدم الخلفاء العلماء من المشرق لينقلوا معهم كنوزهم الأدبية فيتأدب بها الكثيرون. وكان للفقهاء في الأندلس سلطان عظيم لدى الدولة، ولدى عامة الناس.

واحتلت المرأة في الأندلس منزلة عظيمة، ونالت حظا وافرا من التعليم، ونبغت في العلوم والآداب والفنون كثيرات: قيل إن مئة وسبعين امرأة بضاحية قرطبة الشرقية كن يعملن يومياً في نقل نسخ من القرآن الكريم بالخط الكوفي، وإن «إشراق العروضية» (القرن الخامس الهجري) كانت تحفظ «الكامل» للمبرد، و«النوادر» للقالي، وكان يعهد إلى النساء بتربية أبناء الأمراء والأغنياء وتأديبهم، فابن حزم تلقى ثقافته الأولى على يد نساء قصر أبيه، وهن علمنه القرآن، وروينه الأحاديث الشريفة، ودربنه على الخط.

وكانت الشواعر ملمحا بارزا من ملامح الشعر الأندلسي لوفرتهن ونبوغهن، وقد ارتبط سحر شعر النساء باسم ولادة (ت٤٨٤هـ) بنت الخليفة المستكفي (ت ٤١٦هـ) فقد غشي منتداها فرسان النظم والنثر، ومنهم ابن زيدون (ت٤٦٣هـ) الذي نعم بوصلها، وشقي بهجرها، فقال فيها أجمل الغزل وأرقه.

الشعر الأندلسي:

نقل العرب إلى الأندلس أخلاقهم وعاداتهم وأدبهم وشعرهم، فاستخدموا الشعر فيما كانوا يستخدمونه في عصر بني أمية بالمشرق؛ من أنواع الحماسة والحض على الجهاد والدعوة إلى العصبية وإثارة الفتن. ولما خمدت الفتن وقرَّ الملك في بيت عبد الرحمن، هبَّ الشعراء ينحون مناحي الشعر التي فشت في الإسلام، فصار الشعر صناعة فئة من المتأدبين يتكسَّبون به بمدح الخلفاء والأمراء والقواد والانقطاع إليهم، وشجعهم هؤلاء أمويهم وعلويهم وبربرهم ببذل العطاء لهم وتقريب منازلهم منهم. فاتخذوهم بطانة وندماء، وأعوانًا ووزراء، إذ لم تكن صناعة الشعر مزرية بعظماء الناس هناك، بل كانت حلية كل متعلم، فقلما عجز عن قول الشعر إنسان منهم، بل نظمه كثيرون منهم حتى الأميون، ولم يأنف من نظمه الخلفاء والوزراء والأمراء والفقهاء، فأولع به كل الطبقات حتى النساء، ومنهن من بارين الرجال فيه.

ولا نسمع بفقيه أو فيلسوف أو طبيب أو رياضي أو مؤرخ إلا نراه شاعرًا بليغًا له مطوَّلات ومقطَّعات شعرية، في أغراض مختلفة؛ وذلك لجمال أرضهم وبيئتهم وطيب عيشهم وميلهم الفطري إلى الشعر؛ لأن أكثرهم من عناصر عربية.

وإذا لم يشتهر فيهم أمثال بشار وأبي نواس والمتنبي وأبي تمام والبحتري، فذاك لبعدهم عن المشرق مهد العربية وميدان التنافس العام فيها،

ولقد نظم شعراء الأندلس في جميع الأنواع الشعرية والأغراض حتى الخمريات والمجون والموشحات والأزجال، ولكنهم فاقوا العباسيين في وصف مناظر الطبيعة ورثاء الممالك الزائلة. وأشهر هؤلاء أبو البقاء الرندي في رثاء الأندلس، ثم نظموا قواعد العلم شعرًا، وبعض الحوادث التاريخية، وقصروا عن المشاركة في الحِكَم التي تسير سير الأمثال، وكان شعرهم في الغزل غاية في الرقة، والخيال الشعري الجميل مادة معانيهم، وقلما أتوا في شعرهم بقضايا عقلية وأحكام فلسفية.

ولا نعرف إلا القليل عن الشعر الأندلسي في القرون الأولى للفتح، ولضياع المجموعات الأولى من الشعر، مثل كتاب الحدائق لابن فرج الجياني، يصعب علينا درس هذه الفترة. يقال أن سفير عبد الرحمن الثاني، يحيى الغزال قد كتب شعراً ملحمياً مستعملاً الأرجوزة، ويقال أن لتمام بن أمير، ولابن عبد ربه شعراً. ولكن الموشح في القرن ٩ هو الشكل الأندلسي الأول في الشعر، وكان أول أمره مقطعات منوعة القافية، وينتهي بخارجة في لغة رومانسية غير عربية، يمثل ازدواج اللغة في الشعر العربي لأول مرة، كما يمثل ازدواج الذوقين الفنيين، العربي والإسباني، وقد ظل الموشح غنائياً عربياً فصيحاً ولكن تنوعت فيه القافية، وزيدت الخارجة. ولما كان اكتشاف المخطوطات في مجموعات الموشحات يأتي كل يوم بجديد، فإنه من الصعب أن ندرس الموشح درساً كاملاً. وبالرغم من ذيوعها، واستساغة بعض نقاد المشرق لها، فقد ظلت نوعاً ثانوياً لشعبيتها إلى جانب الأشكال العربية القديمة التي تنوعت قليلاً في بلاط خلفاء المغرب. وأهمية الموشحات تزداد عند المستشرقين اليوم، بسبب علاقة الشعر الشعبي الإسباني بأوليات الشعر الأوروبي عند الشعراء الجوالين «التروبادور».

وأهم من أثر في المغرب من شعراء المشرق، هو المتنبي الذي شرح ديوان ثلاثة من أعلامهم: الشنتمري، الأفليلي، وابن سيده. وقد احتذاه في

تنويع وإجادة، شعراء بلاط قرطبة. وظل الشعر الرسمي حتى القرن ١١ مقلداً ثم اتخذ لنفسه شخصية قوية جديدة. ولاشك أن خلفاء بني أمية شجعوا الأدب وعملوا على جمع الكتب: «مكتبة الحكم الثاني»، ولجزيل عطائهم ظهرت طائفة من شعراء البلاط، أهمهم في هذه الفترة: «المصحفي» (٩٨٢). ولكن الشعر الأندلسي الحضري يبدأ بابن دراج القسطلي (١٠٣٠)، في عهد المنصور الذي أحرق مكتبة الحكم، خوفاً على الدين من العلم والفلسفة. ويعد البغدادي والرمادي من شعراء هذا النوع في هذه الفترة.

وتزعم ابن شهيد(١٠٣٥) حركة شعراء من أصل ارستقراطي، قاومت الموشح لشعبيته وتعصبت للشعر الفصيح وللعربية الأصيلة. وتظهر أفكاره تلك في كتابه «التوابع والزوابع». ويعد ابن حزم في تحليله للشعر العذري في «طوق الحمامة» من تلاميذ هذه المدرسة، وإن تكن شاعريته أقل درجة. ولم يؤثر سقوط الخلافة وقيام ملوك الطوائف في الشعر، بل أنه على العكس وصل إلى ذروته، وفي هذا العصر ازدهرت حركة جمع الدواوين والمختارات الشعرية ووصلتنا دراسة أيضاً عن الشعر في القرن الحادي عشر، نشرها المستشرق بيرس أخيراً وعلق عليها بدراسة وافية للشعر في القرن الحادي عشر، وإذا كان كل بلاط تخصص في حماية نوع من المعرفة، فالكل حمى الشعر، وعالج الشعر الكلاسيكي الجديد كل الموضوعات، وإن يكن الوصف، وصف الطبيعة والحيوان والإنسان، أكثر موضوعاته انتشاراً.

وشهر في قرطبة: ابن زيدون (١٠٧٠) الذي تغنى بحبه لولادة بنت المستكفي (١٠٩٥) التي كانت حياتها شعراً وألهمت شعراء إسبانيا، بل شعراء صقلية أيضاً، مثل ابن حمديس (١١٣٢). وفي بلاط المعتصم ظهر الشاعر ابن شرف (١١٣٩) وفي غرناطة شهر أبو إسحق الإلبيري (١٠٦٩)، وابن عبدون (١١٣٤). وفي عصر المرابطين الذي يبدو أنه جمع شمل الدولة الممزقة، خمد الشعر، فقد كان أكثر اهتمامهم بالدين. وفي بلنسية وحدها نجد

الشعر المتحرر الذي شاع أيام ملوك الطوائف، بينما بسط سائر الملوك رعايتهم على شعر مديح تقليدي. وفي بلنسية نجد شعر الطبيعة والغزل عند ابن خفاجة (١١٣٨)، وشعر الطبيعة والخمر عند ابن زقاق (١١٣٥).

أيام الموحدين:

أما أيام الموحدين، فظهر ابن سهل (١٢٥١) والرصافي (١١٧٧). وإلى سقوط غرناطة لم ينبغ إلا لسان الدين بن الخطيب (١٣٧٤). وكان آخرهم ابن زمرك (١٣٩٣) وكلاهما لا يعد من الطبقة الأولى في الشعراء. ولما شعر الأدباء بأفول نجم الشعر في الأندلس أخذوا في جمع تراثه: فابن بسام (١١٤٧) يؤلف «الذخيرة» والفتح بن خاقان يؤلف «قلائد العقيان»، وابن سعيد (١٢٧٤) يستخلص من كتابه «المغرب» «رياض المبرزين» ليؤرخ الشعر في الأندلس. وإلى أن انتهى (الجزر)، وخرج العرب من الأندلس، نجد من يحمل لواء الموشح مثل الأعمى الطليلي (١١٢٦)، وابن بقي (١١٤٥)، ويقود لواء الزجل ويصل به القمم الفنية الرائعة: الشاعر ابن قزمان (١١٥٩).

وقد انتعش الزجل بفضله، وألف فيه كثير من شعراء الفترة الأخيرة: أما النثر، الذي بدأ أندلسيا بابن شهيد وابن حزم، فإنه سرعان ما مال نحو تقليد المشرق، ويدل على ذلك: «سراج الملوك» للطرطوشي (١١٢٦) وموسوعة البلوي (١٢٠٧) وطائفة المقامات التي قلدت الحريري، مثل مقامات الشريشي (١٢٢٢). وشجع الموحدون التأليف الديني والعلمي: ففي العلوم الدينية ألف ابن عاصم التحفة (١٤٢٦)، كما ألف في اللغة البطليوسي (١١٨٥)، ولكن يلاحظ أن فريقاً من العلماء، أمثال ابن مالك (١٢٧٤)، وأبو حيان (١٣٤٤)، آثروا المشرق إذ نزحوا إليه بمؤلفاتهم. وذاعت كتب السيرة بعد القاضي عياض، فقد ألف في السير: ابن بشكوال، والضبي، وابن الأبار، وابن زبير، وألف في التاريخ ابن سعيد المغربي كتابه المعروف «المغرب»، الذي اعتمد

على كثير مما سبق في الميدان. وبرز في الجغرافيا: الإدريسي، وفي تأليف كتب الرحلات: ابن حامد الغرناطي (١١٦٩)، وابن جبير (١٢١٧) والعبدري في القرن ١٣، وازدهرت في القرنين ١٢ و١٣ العلوم، كالرياضة، والفلك، والصيدلة، وعلم النبات، والطب، وقد أثرت العربية في لغة ش إسبانيا، وتغلغلت في لغاتهم الدارجة، وأوجدت لهجات خاصة، لها أدب شعبي خاص، يدرس لأهمية أثره في شعر أوروبا في القرون الوسطى، ولدوره في شعر النهضة.

والشعر الأندلسي له طابع خاص في الخصائص لاسيما في الفنون الشعرية الذي امتاز بالوصف ورثاء الممالك الزائلة والاستنجاد بالرسول وكبار الصحابة ونظم العلوم والفنون والشعر الفلسفي، كما امتاز معانيه وأفكاره بالوضوح والبساطة والبعد عن التعقيد والتلميح إلى الوقائع التاريخية ولاسيما في رثاء الممالك الزائلة، أما ألفاظه وعباراته فقد كانت واضحة وسهلة والرقة والعذوبة وتجنب الغريب من الألفاظ واهتم بالصنعة اللفظية، وقد انتزع تصويره وخياله من البيئة الأندلسية الغنية بمظاهر الجمال الطبيعية وتزاحم الصور، أمابالنسبة للأوزان والقوافي فقد التزموا بوحدة الأوزان والقوافي بدايةً، ثم ابتدعواأوزانا جديدة لانتشار الغناء في مجالسهم ونوعوا في القوافي ومن ذلك الموشحات، من أشهر شعراء العصر الأندلسي هم أحمد عبد ربه، ابن برد، ابن هانئ الأندلسي وابن سهل الأندلسي الذي قال قصيدة المشهورة بالرداء الأخضر:

الأرض قد لبست رداءًأخضرا والطل ينثر في رباها جـــوهرا
هاجت فخلتُ الزهر كافورا بها وحسبتُ فيها الترب مسكا أذفرا
وكأن سوسنها يصافح وردها ثغر يقبل منه خداً أحمـــــرا
والنهر ما بين الرياض تخاله سيفا تعلق فـــي نجادأخضرا

مرحلة عصر الولاة:

ويبدأ بالفتح ودخول الإسلام لهذه البلاد وبعد تعيين أول والي عليها من قبل بني أمية في المشرق، وبطبيعة الحال كان أدباء تلك الفترة من الوافدين المشارقة، لذلك اتسم شعر تلك الفترة بأنه مشرقي خالص بمعنى أن خصائصه هي خصائص الشعر المشرقي من حيث الموضوعات والأسلوب، فالموضوعات تقليدية من مديح ورثاء وهجاء...الخ والأسلوب- كذلك- يسير على الاتجاه المشرقي من لغة وصور وبناء للقصيدة. وكان من أبرز شعراء تلك الفترة: أبو الأجرب جعونة بن الصمة، وأبو الخطار حسام بن ضرار، وإن لم يصلنا غير القليل من أشعارهما.

عصر بني امية:

ويبدأ بتولية عبد الرحمن الداخل (صقر قريش) الحكم، وبناء مجد لبني أمية على أنقاض مجدهم الضائع في المشرق على يد العباسيين، وفي هذه الحقبة ظهر لنا أول جيل من الأندلسيين العرب، وإذا نظرنا لحالة الأدب لوجدناه متطبعا بالطابع المشرقي، فالشعراء يسيرون فيه على تقاليد المدرسة المشرقية المحافظة، غير ان هناك سمات ثلاث تميز شعراء تلك الفترة عن شعراء المشرق وهذه السمات، هي:

١-التجديد الموضوعي، بمعنى طرق موضوعات جديدة أو موضوعات قديمة ولكن بطريقة جديدة، كمعالجة الشاعر أبي المخشي للعمى، إذا أصيب به بعد أن كان مبصرا فأخذ يصور حاله وحاله زوجه المتأثرة بما أصابه.

٢-التركيز العاطفي: وهو تركيز الشاعر على عواطفه ونقلها عبر نصه الشعري.

٣- التجويد الفني: ويعني ايصال المعنى بطريقة الإيحاء.

ومن أبرز شعراء تلك الفترة: عبد الرحمن الداخل، وأبو المخشي، وحسانة التميمية، والحكم بن هشام. ولا يفوتني أن أذكر لك بانه في هذا العصر ظهرت لنا الموشحات كخطوة جديدة جريئة في عالم الشعر العربي.وقد مهد هذا الفن لظهور موضوعات جديدة نحو الخمريات، والغزل الشاذ، فالموشحات كما نعلم كانت مرتبطة إلى حد كبير بالغناء واللهو.وبذلك انتقل بعض الشعراء إلى مرحلة التجديد الشعري من طرق موضوعات جديدة نحو الخمريات، ووصف الطبيعة، والزهد كرد فعل لظاهرة تفشي اللهو والمجونيات. اما الأسلوب فقد حدث فيه تجديد كذلك من استعمال للأوزان القصيرة، ومن سهولة اللغة الشعرية، ومن استمداد الصور من الحياة الحضارية..إلخ.

عصر ملوك الطوائف:

ويبدأ من انتهاء حكم بني أمية أثر الفتنة القرطبية التي ألحقت الدمار بكل شيء في قرطبة رمز العلم والمجد انذاك، وقد تميز هذا العصر بروح التنافس القوي بين ملوكه فأغلبهم كان محبا للعلم وللادب، بل منهم من كان يقرض الشعر كالمعتمد بن عباد ملك اشبيلية، وكان هؤلاءالملوك يزجلون العطايا للشعراء مما ساهم في تطور الشعر في تلك الفترة. وبسبب الاستقرار المادي والحضاري والعلمي وجدنا بعض الشعراء يعود مجددا للأسلوب الشعري القديم مع ربطه بالحضر، فظهر لنا أصحاب الاتجاه الوسطي أو المحافظ الجديد، وكان منهم ابن زيدون، وابن خفاجة، وغيرهما كثر، وهذا أبرز ملامح الأدب الأندلسي وأبرز اتجاهاته الادبية.

الموشحات:

وهي شكلٌ من أشكال الشعر ابتكره أهل الأندلس لرغبتهم في التجّديد والخروج على نظام القصيدة التقليديّة، بحيث ينسجم هذا الأدب الجديد مع طبيعة حياتهم الاجتماعية في تلك المرحلة، وتميز هذا النوع من الأدب عن غيره بعدة أمور منها: خصوصية البناء، وتميز اللغة، واختلاف الإيقاع،

والارتباط الكبير بالموسيقى والغناء، والالتزام بقواعد معينة؛ كاستخدامه للغة الدارجة أو اللغة الأعجميّة، وقد لاقى هذا الأدب اهتماماً كبيراً من الملوك والأمراء؛ مما كان له الأثر الأكبر في انتشاره الواسع خصوصاً بعهد المرابطين.

ويصف المؤرخون الموشحات بأنّها شعبيّة؛ لأنّها لون شعريّ نشأ في الأوساط الشعبيّة من أجل إرضاء رغبة الناس، ولأنّ البعض من نصوص هذا الفن نُظمت باللغة العاميّة الشعبيّة، مما جعل الشعراء الكبار في بداية نشأته يمتنعون عن التأليف على طريقته؛ لأنهم اعتبروا هذا التأليف بمنزلة عامة الناس، ولأنّ الموشح حسب رأيهم- أقل مستوى من الشعر التقليدي، ومع تطوّر الزمن تغيّرت هذه النظرة إلى الموشح، حيث أولوا له أهميةً كبيرةً، وبدأوا ينظمون شعرهم على منواله.

تعريف الموشحات تُعَرّفْ الموشحات في معناها اللغويّ: "أنّها كلام منظوم على وزن مخصوص"، وقد اشتُقّ اسمها من الوشاح؛ وهو رداء يمتاز بزركشته، وتزيينه بالزخارف والجواهر، وكان المراد من هذه التسميّة التغييرات التي طرأت على القصيدة العربيّة، أمّا التعريفات العديدة التي جاء بها الأدباء والباحثون، فتتلخص بأنّ الموشحات فنٌّ من فنون الشعر العربي المستحدّثة يختلف عن القصيدة التقليدية في قوافيه المتعددة، وأوزانه المتنوعة.

نشأة الموشحات:

يُعدّ الموشح ظاهرة من الظواهر الأدبية القليلة في الأدب العربي، فبعد الانتشار الواسع للشعر التقليدي في بلاد الأندلس بين القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديّين، والذي تميز بالتقيّد بالوزن والقافيّة ظهر جيلٌ جديدٌ من الشعراء، ونشأ وترعرع في الأندلس بين الطبيعة ومجالس الغناء والطرب ومظاهر الترف؛ فأثّرت هذه الأجواء المتحرّرة في شعره وعطائه، وأصبحت القصيدة الواحدة تظهر في مجالس الطرب غير ملتزمة ببحور الشعر وأوزانه

التقليديّة، حيث تنقّل الشعراء بين قوافي الشعر وبحوره وأوزانه، مما أدّى إلى تداخُل الغناء مع هذا اللون الجديد الذي تميّز باختلافه عن القصيدة التقليدية، من خلال اعتماده على أكثر من قافية ووزن وبحر عروضي.

إضافة إلى ما سبق؛ فإنّ الموشح نشأ أيضاً نتيجة وجود ظاهرة اجتماعيّة تجسّدت في الاختلاط المباشر بين العرب والإسبان، ونتج عن هذا الاحتكاك امتزاج لغويّ، تمثّل في معرفة الشعب الأندلسي للعاميّة العربيّة، واللاتينية، ونتيجة هذه الثنائيّة اللغويّة نشأت الموشحات التي كانت تُنظّم بالعربيّة الفصحى، باستثناء الفقرة الأخيرة منها، وكانت تسمى "الخرجة"، حيث كانت تنظم بالعاميّة الأندلسيّة، وهي عاميّة العربيّة التي كانت تستخدم ألفاظاً من العاميّة اللاتينية.

وأشهر أصحاب الموشحات لسان الدين الخطيب وغيره، وقد روي لابن المعتز من المشارقة موشح يمتاز بتماسك ديباجته ولا يقل رقة عن موشحات الأندلسيين، ونظموا الموشح باللغة العامية فلقِّب بالزجل، ثم شاع هذان النوعان في المشرق فحاكوا الأندلسيين فيهما حتى وقتنا هذا، ونبغ في الأندلس شعراء وشاعرات عديدون لا يحصون، أشهر مشهوريهم: ابن هاني –وقد سبق ذكره– وابن عبد ربه، وابن خفاجة، وابن حمديس، وولَّادة، وابن زيدون...إلخ، وأخيرًا ظهر الزجل الذي ينبع عندنا اليوم، وقد صار عاميًّا صرفًا في لهجته، وقد خصصنا هذا الفن بكتاب يظهر إن شاء الله.

النثر:

كانت مناصب الكتابة في عصر الولاة وأول عصر بني أمية كما كانت عليه في المشرق يتولاها الأمير مليًا على كاتبه، أو الكاتب برأي الأمير، وإذا علت مرتبة الكاتب وناب عن الأمير أو الخليفة سمِّي حاجبًا، وهو أشرف ألقاب الدولة. أما اسم الوزارة فكان يطلق على كل من يجالس الملوك ويختص بهم، ثم صار لقب الوزير الذي ينوب عن الملك في سياسة

الدولة ويلقَّب بذي الوزارتين، يكون غالبًا من رجال الأدب، وكذلك كانت حالة الكتابة من جزالة اللفظ وفخامة المعنى وخلوها من السجع، إلا نادرًا، ثم حاكوا المشارقة في نظام الدواوين ورسوم الكتابات من تمييز أقسامها وتنويع بدئها وختامها، وتسجيع عباراتها، كطريقة ابن العميد في السجع القصير، واستمداد المعاني من الخيال، وحل المنظوم، ومن القرآن والحديث، وتضمين الأمثال، والتلميح إلى حوادث التاريخ، وكتبوا في كل الأغراض التي طرقها كتَّاب المشرق، ولكن بلاغتهم لم تنحط في آخر أمرهم كما انحطت في مصر والشام، في العصور التركية، لقلة طروء العناصر الأعجمية عليهم ولتأصُّل عادة الاشتغال بالعلم فيهم.

كتَّابهم: ابن شهيد أبلغ كتابهم، له في الوصف والمداعبات رسائل بديعة، وابن زيدون، والفتح بن خاقان.

التدوين والتصنيف: ابتدأ التدوين والتصنيف في أواخر عصر الأمويين وصدر العباسيين، أما الأندلس في ذلك الزمان فكانت مضطربة، فلما وطد عبد الرحمن أركان ملكه ومهَّد طريق الحضارة والرخاء والأمن لأهلها، هبُّوا يرحلون إلى المشرق لأداء فريضة الحج واقتباس العلوم، فتابعوا رحلاتهم إلى الشرق برًّا وبحرًا، ونقلوا إلى بلادهم علوم اللسان والدين؛ لأن الأندلسيين كانوا أشد أهل الأرض حبًّا للعلم، وتفانيًا في تحصيله وتوقيرًا لأهله، وساعدهم على ذلك بنو أمية وخلفاؤهم ببذل الأموال العظيمة في جمع الكتب ومكافأة العلماء، وأحلوهم أرفع منزلة، وسمعوا أمرهم وخضعوا لنهيهم، وأخصهم عبد الرحمن الناصر وابنه المستنصر «الحَكَم»، وقد جمع الحَكَم هذا في مكتبته بقصر قرطبة مئات الألوف من الكتب، وكذلك كان أكثر خلفاء بني أمية، وأعيان قرطبة، فما انقضى القرن الرابع حتى نبغ ألوف من العلماء، فضارعت الأندلس المشرق وفاقته في بعض العلوم، ولم يقصر ملوك الطوائف عن الأمويين فآزروا العلم وقرَّبوا العلماء، وكان من ملوكهم

الأدباء أيضًا مثل المظفر أحد بني الأفطس صاحب بطليموس، صاحب التاريخ المظفري في ٥٠ مجلدًا، وفي عصر المرابطين هدأت حركة العلم قليلًا؛ لأنهم اضطهدوا أصحاب الآراء والنِحَل المذهبية، حتى تساهل الموحدون في أمر مطاردة الفلسفة وعلومها، فنبغ من الحكماء والأطباء والكيمائيين جماعة أشهرهم: ابن رشد، والباجي، وابن زهر، ثم قلَّ الاختصاص في العلوم، وكانت تنتعش أحيانًا الحركة العلمية ثم ترقد، حتى أباد الإسبان العرب وعفوا آثارهم وأحرقوا كتبهم، فلم يسلم منها إلا ما نُقل قبل الجلاء أو جُهِل مكانه.

تأثير الأندلس: للأندلس أبلغ أثر عربي في الغرب، فكلية قرطبة كانت تضم بين جدرانها اثني عشر ألفًا من الطلاب، عرب وغير عرب، والفن العربي في البناء تجلى بأبهى مظاهره في الأندلس من قصر الحمراء إلى جامع قرطبة، وجعلوا للغة العرب سيادة هائلة في الغرب فاندحرت أمامها جميع اللغات، حتى طلب رؤساء الدين المسيحيون من البابا أن يترجموا كتب الطقوس الدينية إلى العربية، وأدخلوا في لغات الغرب القافية في الشعر التي لم يعرفها الغربيون قبل العرب، ثم طوروا شعرهم إلى نوع الموشحات، ووأخذ الطرب عن العرب من الموسيقى الكمنجة «الرَّباب» والفليت «الشبَّابة» عدا الألفاظ التي ملأت لغات الأوروبيين. أما العلوم وفروعها فحدِّث عنها ولا حرج، فقد ظلت كتب العرب مصدرًا لها، ولا يزال حتى اليوم المستشرقون يخرجونها كل عام.

شعراء الأندلس:

شعراء الأندلس فئتان: فئة ظلت محافظة في شعرها على النمط الشرقي فلم تخرج على التقليد، فقالت قصيدتها على الطراز الذي ألفه الشعراء المشارقة في التفكير والتصوير، فلم تكن أفكارهم غير شرقية. وعندما قال

الصاحب بن عباد كلمته — حين اطَّلع على العقد الفريد ولم يجد فيه ما كان ينتظر من أدبنا عبر البحار: هذه بضاعتنا ردت إلينا. جاءت تلك الكلمة في محلها. ولكن الفئة الثانية خرجت على العروضي، فالعرب الأندلسيون في فجر هجرتهم كانوا مقلِّدين للمشرق في كل شيء، حتى الألقاب التي كان يتخذها ملوكهم، ولما طال الزمان وتأثروا بمحيطهم الجديد خططوا قصائدهم على النظام المعماري الغربي، فصارت قصائدهم غير ذات زوايا أربع كبيوتنا الشرقية، ولما كان هذا الكتاب معمولًا — كما قلنا في التوطئة — ليكون دليلًا للقارئ في دنيا ثقافتنا الواسعة، اكتفينا بما قلنا حتى لا نخرج عن تخطيطنا؛ ولهذا نقول إن شعراء الأندلس ليسوا كلهم ممن وشَّحوا قصائدهم فنوعوا قوافيها ووحدوا موضوعها، ولعل أول المحافظين كان ابن عبد ربه الذي لقِّب بمليح الأندلس.

ابن عبد ربه:

هو مليح حقًّا، وقد كان المتنبي محقًّا حين سمع شعره وأثنى عليه؛ فلهذا الأديب شعر متماسك خالٍ من تلك الميوعة التي نجدها في شعر المتوسطين من شعر ذلك الشطر من الإمبراطورية العربية، فليس في شعر الأندلسيين الذين قالوا الموشحات شعر يماشي شعر المشارقة غير موشح لسان الدين الخطيب: جادك الغيث. والموشح الآخر المنسوب لابن المعتز، فابن عبد ربه، وهو الشاعر المجيد الذي لم يتخلَّ عن شرقيته، له شعر ذو حظ كبير من الخيال واعتماده على الاستعارة والتشبيه، والذي رأيته هو أن خياله أقوى من عاطفته، وُلد هذا الشاعر بقرطبة، وانكبَّ على المطالعة، ثم لما اشتد ساعده ألَّف كتابه «العقد الفريد» الذي زين به جِيد حسناء يعرب.

ابن زيدون وولَّادة:

لا تغرك هذه الواو والنون، فالعرب قالوا هكذا، وابن زيدون من مواليد قرطبة وهو عربي أصيل من بني مخزوم، وُهِب مَلَكة شعرية رائعة فقال

الشعر يقطر رواء وماوية، وقال أشهر قصائده كما أوحاها إليه قلبه، فدارت على الألسن وظلت حتى يومنا هذا في دورانها، قالها حين حِيل بينه وبين حبيبته ولادة بنت المستكفي، وهي شاعرة من طرازه، وقد كانت سافرة في ذلك الزمان، رغم أنها بنت الخليفة المستكفي، وقد أراد ابن عبدوس أن يشاركه في حبها ولكنها لم تمِلْ إليه، ولمَّا كان هذا من المقربين من أولياء الأمر دسَّ الدسائس، فنجحت وشايته، فسُجن ابن زيدون، ولما عجز عن استرضاء ابن جَهور صاحب العرش، فر من سجنه ولجأ إلى المعتمد بن عباد، واشتهر ابن زيدون بالرسالة التهكمية التي وجَّهها إلى ابن عبدوس، وهي من طراز رسالة التربيع والتدوير التي كتبها الجاحظ. والرسالة تشبه اليوم ما عُرف «بطبق الأصل»؛ إذ كتبها عن لسان ولادة صاحبة الندوة الأدبية التي تقول في وصف نفسها:

أنا والله أصلـــــــــــح للمعالي وأمشي مشيتي وأتيه تيها

وأمكن عاشقي من صحن خدي وأمنح قبلتي من يشتهيها

وقد كانت تكره ابن عبدوس ولا تخشى أن تتندر عليه، وقد مرت عليه مرة وهو جالس أمام بركته الآسنة، فقالت له متمثلة:

أنت الخصيب وهذه مصر فتدفقا فكلاكما بحر

وقد كانت ولادة شاعرة حرة التفكير، كأنها من نساء اليوم المتطرفات، وإذا لم تنظم الروائع فحسبها أن حبها أوحى إلى ابن زيدون قصيدته الباقية: أضحى التنائي بديلًا من تدانينا. وسنقرؤها إن شاء الله في النصوص المختارة، وهي جزء تابع لهذا الموجز.

ابن عمار:

وُلد في بيت خامل، تأدَّب في قرطبة مدينة الأدب والعلم، ثم صار معلمًا للمعتمد ابن عباد ونجيَّه وسميره ووزيره، وابن عمار يجاري ابن زيدون، وأغلب قصائده في مدح المعتضد وابن المعتمد.

شعره: يمتاز شعر ابن عمار بصوره كما امتاز شعر ابن زيدون بعاطفته الحامية الوطيس، ومن قول ابن عمار في مدح سيده:

أثمرت رمحك من رءوس ملوكهم لما رأيت الغصن يعشق مثمرا

وصبغت درعك من دماء كماتهم لما علمت الحسن يلبس أحمرا

أما نهاية ابن عمار فكانت بشعة؛ تآمر على مولاه المعتمد وعصاه، فسجنه المعتمد ولم يعفُ عنه رغم القصائد التي قالها في طلب العفو، بل قتله بيده في سجنه وأمر بدفنه.

ابن حمديس الصقلبي:

شاعر مبدع في الصور والتخيل، تعمَّق في وصف الطبيعة والعمران، وجد خياله مجالًا واسعًا، وكان له في محيطه مرعى خصيب، جنائن وارفة الظلال وأنهار تغني للغصون فترقص، بدائع وطرائف راح يصوِّرها ابن حمديس بقلمه، فجاءت لوحات طريفة نادرة، وقد مشى على خطى البحتري في وصف القصور والبرك، وسعى وراء التشابيه والاستعارات يتصيدها حتى ظهرت الصنعة وكثرت، ولم يهمل ابن حمديس شعر المدح فأغرق فيه، وعاش ميسورًا.

ابن خفاجة:

وُلد بجزيرة شقْر، وهو كابن حمديس في أغراضه الشعرية، حاكاه في صوره وإحساسه، وآفة الشعراء سيرهم خلف بعضهم كالقوافل على الطرق المعبَّدة، لكن ابن خفاجة لم يتكسَّب بشعره إلا نادرًا، فقاله في الموضوعات الأخرى.

ابن سعيد:

شاعر أندلسي، هاجر إلى مصر فأصابه داء الحنين إلى وطنه، فقال شعرًا جيدًا في ذلك، متذكرًا غرناطة التي ولد فيها.

لسان الدين الخطيب:

ولد بلُوشة، وتضلع من جميع علوم زمان حتى صار فيها حجَّة، ولما اجتمع أشده خلف أباه ووزِّر لبني الأحمر، وظل ينعم في ظل العز الوارف، حتى خلع مولاه فاعتقل وعذب، واتهم بالإلحاد والزندقة عملًا بالكلمة المشهورة: من تمنطق فقد تزندق. ثم كانت الفتوى وإباحة دمه، فهاجموا السجن فخنقوه وطرحوا جثته فدفن، ثم أُخرج من لحده وأُحرق، وكان لسان الدين شاعرًا مجيدًا وكاتبًا وخطيبًا وفيلسوفًا مشاركًا في جميع علوم زمانه، وله مؤلفات، منها: كتاب الإحاطة في تاريخ غرناطة، وكتاب الإشارة إلى آداب الوزارة، وبستان الدول.

تآليفه: وقد أوصل المقري تآليف لسان الدين الخطيب إلى الستين، وأشهر موشح اتبع حتى قلده المشارقة والمغاربة، هو موشح لسان الدين الذي مطلعه:

جادك الغيث إذا الغيث همى يا زمان الوصل بالأندلس

وله غيره موشحات كثيرة وشعر وافر.

المعتمد بن عباد:

سيرة حياته: أبوه المعتضد العبادي ملك إشبيلية، مات أخوه الذي كان صاحب الحق في ميراث العرش، فانتهى الأمر إليه. اتخذ الشاعر ابن عمار وزيرًا لدولته، ثم قتله بيده كما مرَّ، واستولى على قرطبة، وبلغ مرسية، ولما اتسعت رقعة ملكه وخاف عليه من ملك قشتالة ألفونس، استنجد بابن تاشفين ملك مراكش فلبَّاه. وأخيرًا انقلب عليه وأشعل نار الفتن، فاستولى على قرطبة وإشبيلية وأسر المعتمد ونفاه وأهله إلى أغمات، وهناك مات بعد عذاب شديد وفقر ليس فوقه فقر، وهذا الملك هو أحد الذين صوَّرهم أحد شعراء عصرهم حين قال:

وتفرقوا شيعًا فكل قبيلة منها أمير المؤمنين ومنبر

إنه شاعر، وقد وصف لنا سوء مصيره في شعره الذي هو أبلغ معبِّر عن آلامه ونكبته الفظيعة. قال يصف موقفه من العيد في أغمات:

فيما مضى كنت بالأعياد مسرورًا فجاءك العيد في أغمات مأسورا
ترى بناتك فـــــي الأطمار جائعة يغزلن للناس ما يملكن قطميرا
برزن نحوك للتلسيم خاشعـــــــــــة أبصارهن حسيراتٍ مكاسيرا
يطأن في الطين والأقدام حافية كأنـــــــــها لم تطأ مسكًا وكافورا
أفطرت فـــــــي العيد لا عادت إساءته وكان فطرك للأكباد تفطيرا
من بات بعدك فـــــــــــــي ملك يسر به فإنما بات بالأحلام مغرورا

وخوفًا من أن تتساءل كما تساءل العقاد عن التين والعنب في قصيدة أبي تمام البائية فتقول منتقدًا: متى كان المسك والكافور للموطئ؟ فإننا نقول لك كما قلنا لذاك العلامة في غير هذا الكتاب.

حكاية المسك: زعموا أن زوجة المعتمد أعجبها مشهد النسوة الفقيرات يحملن جرارهن ويخضن في الوحل، فتمنَّت أن تفعل مثلهن، فأبى المعتمد، ولكنه حبًّا بتلك الملكة عمل لها وحلة من مسك، فحملت جرَّتها مثلهن وفعلت هي وبناتها كما فعلن، ويقال إنها حينما جاءت زائرة زوجها الملك في زندانه، تذمرت وقالت إنها لم تشاهد يومًا أبيض في حياتها معه، فأجابها المعتمد: ولا يوم الطين ...!

من بات بعدك في ملك يسر به فإنما بات بالأحلام مغرورا

المعتمد وأبو فراس: المعتمد أبو عيلة، ولذلك جاء تفجعه مؤلمًا، أما أبو فراس فكان برًّا بأمه فما ذكر غيرها حين قال:

لولا العجوز بمنبج ما خفت أسباب المنيه

فبعد هذا الذي نقلناه لك من شعر المعتمد، أقول: تعطلت لغة الكلام فقابِل أنت بين الشاعرين، فكلاهما منكوب، وقد صح فيه قول من قال:

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره تنوعت الأسباب والموت واحد

فلو تذكر المعتمد في سجنه بأية صورة وحشية قتل شاعره ووزيره ابن عمار، لهانت عليه مصيبته، وعندما تقرأ رثاء أبي البقاء الرندي للأندلس، ستهون جميع المصائب.

ابن هانئ الأندلسي:

نسبه: هو أبو القاسم محمد بن هانئ الأزدي الأندلسي، وُلد بإشبيلية ٣٢٦، اتصل بعامل إشبيلية زمن المستنصر الأموي، فمدحه بقصائد غرَّاء، اتُّهم بالزندقة والكفر لاشتغاله بمذاهب الفلاسفة، وظهر ذلك الأثر في شعره لوصفه الممدوح بصفات المعبود، فنقم لذلك أهل إشبيلية فأشار عاملها عليه بالهجرة، فهاجر إلى المغرب ومدح ولاته من قبل المعز الفاطمي، فاتصل خبره بالمعز فدعاه إليه ومدحه بإفريقية، ودخل في دعوة الفاطميين فاتخذه المعز شاعرًا لدولته.

ولما فُتحت مصر على يد جوهر وبنى القاهرة ورحل المعز إليها، أراد ابن هانئ اللحاق به، فتجهَّز وتبعه، ولما وصل إلى برقة نزل على بعض أهلها، فأقام عنده في مجلس أنس، يقال إنهم عربدوا عليه وقتلوه وعمره ٣٦ سنة، ويقال أيضًا إنه وُجد مشنوقًا بتكة سراويله، روي أنه عندما بلغ المعز خبر موته قال: هذا شاعر كنا نرجو أن نفاخر به الشرق.

أخلاقه: كان غير ديِّن، خالعًا كافرًا.

لقبه: متنبي الغرب.

صراحته: كان صريح القول والفعل، لا يبالي بأحد ولا بعواقب الصراحة، ومبالغته بها قتلته. وهذه المبالغة في الصراحة أدت إلى تطرفه في الأفكار والمديح حتى قال لممدوحه:

ما شئتَ لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار

وقوله:

هو علة الدنيا ومن خلقت له ولعلة ما كانت الأشياء

شعره: قيل فيه:

إن تكن فارسًا فكن كعليٍّ أو تكن شاعرًا فكن كابن هاني

هو كبير شعراء الأندلس، غير مدافع، سليم التفكير، سلس التعبير، عالج كثيرًا من مشاكل الحياة وأحوال الاجتماع.

تأثره بالمتنبي: اطَّلع على شعر المتنبي وهو معاصره، فنسج نسجه في الحكمة والفلسفة والأمثال، وفاقه في المبالغة التي لم نسمع بمثلها في الشعر العربي.

وصفه: يجيد وصف ما يراه إجادة نادرة، ولذلك سموه متنبي الغرب، تشبيهًا له بأبي الطيب، إنما بين الاثنين فرق: المتنبي مبتدع، وابن هانئ متبع، شعره يقرقع، كما قال المعري.

أبوالبقاء الرندي:

وأبو البقاء الرندي هو أبو البقاء صالح بن يزيد بن صالح بن موسى بن أبي القاسم بن علي بن شريف الرندي الأندلسي (٦٠١ هـ -٦٨٤ هـ الموافق: ١٢٠٤ - ١٢٨٥ م) هو من أبناء (رندة) قرب الجزيرة الخضراء بالأندلس وإليها نسبته، وقد عاشَ في النصف الثاني من القرن السابع الهجري، وعاصر الفتن والاضطرابات التي حدثت من الداخل والخارج في بلاد الأندلس وشهد سقوط معظم القواعد الأندلسية في يد الأسبان، وحياتُه التفصيلية تكاد تكون مجهولة، ولولا شهرة هذه القصيدة وتناقلها بين الناس ما ذكرته كتب الأدب، وإن كان له غيرها مما لم يشتهر، توفي في النصف الثاني من القرن السابع ولا نعلم سنة وفاته على التحديد، وهو من حفظة الحديث والفقهاء، وقد كان بارعا في نظم الكلام ونثره، وكذلك أجاد في المدح والغزل والوصف والزهد، إلا أن شهرته تعود إلى قصيدة نظمها بعد سقوط عدد من المدن الأندلسية، وفي قصيدته التي نظمها ليستنصر أهل العدوة

الإفريقية من المرينيين عندما أخذ أول سلاطين غرناطة في التنازل للإسبان عن عدد من القلاع والمدن إرضاء لهم وأملا في أن يبقى ذلك على حكمه غير المستقر في غرناطة وتعرف قصيدته بمرثية الأندلس، وهي من أروع القصائد في رثاء الأندلس، يقول في مطلعها:

لكل شيء إذا ما تم نقصان * فلا يغر بطيب العيش إنسان**

هـــي الأمور كما شاهدتها دولٌ * من سره زمن سائته أزمانُ**

أما مناسبتها، فقد أخذت سيطرة العرب المسلمين، في نهاية حكمهم لبلاد الأندلس، تتضاءل شيئا فشيئًا، بسقوط بعض المدن الإسلامية الهامة، في أيدي الفرنجة، وأصبحت البلاد تروّع كلّ يوم، بغارات الأعداء دون أن تجد قوة إسلامية، تصد الزحف الصليبي المتوغل، وقد أدرك المفكرون هول الخطر الراصد، فانطلق الشعراء والأدباء، يصوّرون النهاية المتوقعة، في حسرة بالغة، ومما قيل في هذه المأساة ما نقدّمه الآن من أبيات صاغها شاعر متفجع يبكي الوطن الضائع، ويحذّر المسلمين في شتى البقاع الأرض.

****

العصر الحديث:

حتى مستهل القرن التاسع عشر كانت الحياة العربية بمجملها تخضع لركود شامل في ظل سيطرة الدولة العثمانية على أقطار الوطن العربي، سواء أكانت تلك السيطرة قوية مباشرة كما في بلاد الشام والعراق ومصر، أم ضعيفة أو إسمية كما في أقطار المغرب العربي وبلدان شبه الجزيرة العربية، وكان الأدب العربي، بصفته أحد أنماط تعبيرات تلك الحياة الراكدة عن ذاتها، خامد الجذوة ويكاد يقتصر على ترديد ما تخلف عما اصطلح على تسميته في تاريخ الأدب العربي باسم: أدب عصر الانحطاط، أو أدب الدول المتتابعة.

وقبيل ابتداء القرن التاسع عشر أخذ الاصطدام العنيف بالغرب يهز ذلك الركود المتوارث هزاً شديداً. فقد جاء ذلك الاصطدام غزوات عسكرية تواصلت حتى ما بعد نهاية الحرب العالمية الأولى، وأسفرت عن استعمار مباشر لسائر أجزاء الوطن العربي باستثناء شمالي اليمن وأواسط شبه الجزيرة العربية. واستمر هذا الاحتلال حتى نهاية الحرب العالمية الثانية على وجه التقريب، كما تواصل في بعض الأقطار – كالجزائر – حتى منتصف عقد الستينات من القرن العشرين. أما في فلسطين فقد أقيمت دولة استيطانية ليهود العالم (دولة إسرائيل) الأمر الذي ترك نتائج مأساوية كبيرة ومباشرة على عرب فلسطين، ونتائج شبه مباشرة على بقية العرب في مختلف أقطارهم كانت شدتها متفاوتة بهذا القدر أو ذاك، بحسب قرب كل قطر أو بعده عن حدود تلك الدولة الاستيطانية.

ومع انتهاء الاحتلالات، وحصول الاستقلالات، كان نمط جديد من الاستعمار الاقتصادي العالمي يتولد من طبيعة عمل الرأسمالية العالمية وتطوراتها، ويترك آثاراً سلبية عميقة في نمو سائر المستعمرات السابقة،

وخاصة في نمو أقطار الوطن العربي الغنية بمصادر الطاقة والفريدة في موقعها الاستراتيجي في قلب العالم الذي أخذت تتكاثر فيه القوى الكبرى المتصارعة اقتصادياً وأيديولوجياً.. وكل ذلك قد ترك – ولا يزال يترك – آثاره في سيرورات الحياة في المجتمعات العربية، فتنعكس في الأدب شكلاً ومضمونا.

إن ابتداء اصطدام العرب بالغرب، وما أحدثه من ارتجاج قوي على سطح الحياة العربية الراكدة في أعماقها، لم يسفر عن شعور عربي عام بالعجز وعن استثارة لمقاومة النتائج العسكرية للغزو المتوالي وحسب، بل هو أيضاً قد طرح على العرب مشكلة خمود طاقات الإبداع وتجلياته لديهم، كما طرح عليهم إشكالية اللحاق بركب التقدم العالمي تأسيساً على موروثهم الحضاري من جهة، وفي ظل الاستعمار ذاته من جهة أخرى. فالغزو لم يكن وقع آلة عسكرية وحسب بل كان يحمل معه أيضاً مفهومات النظام الحضاري الذي أنجز الآلة، والقيم البرغماتية لذلك النظام والمتضاربة جذرياً مع القيم العربية الإسلامية السائدة آنذاك، مثلما كان يحمل معه أدوات عمل، وأساليب تصرف، ونهج سلوك، ووسائل ترفيه فني، وكلها غير مألوفة...

واختصارا كان وراء آلة الحرب الغازية ومعها كل ما تمخض عنه التكوين البنيوي الحضاري الغربي من معطيات غير مألوفة ولا معروفة، وحتى غير مقبولة، لدى العرب في حينها.

وإذا كانت غزوة نابليون لمصر في نهاية القرن الثامن عشر تعد افتتاحاً ومدخلاً لعدم اصطدام العرب بالغرب اصطداماً قوياً فعالاً فإنه من المفيد ذكر أنه كانت هناك احتكاكات غير صدامية تمثلت في قدوم إرساليات دينية (كاثوليكية – بروتستنتية – أرثوذكسية) إلى لبنان بوجه خاص، قبل غزو نابليون لمصر بأوقات متفاوتة، ولكنها لن تبرز على أنها قوى مؤثرة في

تطورات الوضع العربي: الأدبي منه والفكري على وجه الخصوص، إلا في القرن التاسع عشر.

ولا بد هنا من عرض صورة إجمالية للوضع العربي في ظل الحكم التركي للإحاطة بأجزاء صورته المتكاملة وتبين حقيقة الفواعل التي ستؤثر في التاريخ الأدبي المعاصر في القرنين التاسع عشر والعشرين كما ستؤثر في تطورات أشكاله الفنية ومضموناته.

لقد أشير قبلاً إلى التفاوت في علاقة الأقطار العربية بالسلطنة العثمانية تبعاً لقربها أو بعدها عن اصطنبول (عاصمة السلطنة) ففي حين كانت أقطار المغرب العربي وكثير من أقطار شبه الجزيرة العربية لا تخضع إلا لسلطة إسمية للعثمانيين، إذ كان لكل من هذه الأقطار حاكم شبه مستقل ينتقل الحكم في ذريته بالوراثة، فإن مصر والسودان (وادي النيل) عرفتا تقسيماً للسلطة بين الولاة الأتراك (الباشاوات) وبين المماليك (البكوات) وغالباً ما كانت كفة ميزان النفوذ تميل لصالح هؤلاء إزاء كفة أولئك.

أما في بلاد الشام والعراق حيث كانت قبضة السلطة محكمة ومرهقة، فقد اعتمد نظام التقسيم إلى ولايات، ونظراً إلى ما كانت تعانيه السلطة من انحطاط عام، وإداري خاصة، فقد عمدت دائماً إلى تعيين ولاة همهم جباية المال إضافة إلى كونهم متنافسين متنابذين، وهو الأمر الذي جر الكوارث على الرعية، إذ عمت الفوضى، وانتشر الفساد، واختل الأمن اختلالاً مفزعاً، وكثرت المجاعات والأوبئة، وأثيرت الفتن الطائفية والحروب الأهلية.. فتدهورت الأوضاع الاجتماعية بعد أن تحولت خطوط التجارة بين أوربة والشرق عن المنطقة لتسلك طريق رأس الرجاء الصالح، وبسبب من هذه الأوضاع المختلة إجمالاً تمكنت الدول الأوربية العظمى آنذاك (إنكلترة – فرنسة – روسية) من إيفاد إرسالياتها الدينية التي عمدت إلى إنشاء مدارسها الخاصة أول بأول.

وفي لبنان تمكن الأمير فخر الدين المعني الثاني الكبير (أواخر القرن السادس عشر) من أن يشيع، لوقت قصير، جواً من التحرر، وقد أسهم ذلك في تقبل نشاط الإرساليات الذي هيأ للتفاعل لاحقاً مع ما سوف يفد من فكر غربي مع الغزوات الاستعمارية المقبلة.

وفي فلسطين أثر ظهور الوالي الشيخ ضاهر العمر في ازدهار الحياة الاقتصادية ازدهارا نسبيا، وكان أحد الزعماء المحليين في اليمن (مستهل القرن السابع عشر) قد تمكن من طرد الوالي التركي وإقامة حكم وطني دام وقتاً غير قصير، وإذا كان العثمانيون قد تمكنوا من استعادة شيء من نفوذهم على اليمن بعد ذلك فقد كان نفوذاً قلقاً ومكلفاً غير مستقر.

وفي أواسط القرن الثامن عشر ظهرت في قلب الجزيرة العربية (نجد خصوصاً) حركة إصلاح ديني قادها محمد بن عبد الوهاب (١٧٠٣-١٧٩٢م)، ورمت إلى تظهير العقيدة مما لحق بها من بدع وعرفت باسم الحركة الوهابية، وبتحالف أتباعها من أمراء نجد من آل سعود تمكنت هذه الحركة من توسيع نفوذها بعيدا.

وكان الإنجليز والبرتغاليون – والهولنديون إلى حد ما – يتنازعون السيادة على الشواطئ الجنوبية والشرقية لشبه الجزيرة، فتمكن الإنكليز من الفوز أخيرا بهذه السيادة.

تلك هي السمات الإجمالية لصورة الوضع العربي في ظل السلطنة العثمانية حتى مستهل القرن التاسع عشر. ولا ينتظر، في مثل هذه الأوضاع، أن تزدهر حركة فكرية أو نشاط أدبي، وعليه فقد كان النتاج الثقافي مقتصراً على التحشية والتلخيص والتفسير والجمع، وطغت الشكلية واللفظية طغياناً صارماً على الأدب خاصة.

غير أنه، تحت سطح هذه الصورة التي تبدو في غاية الخمود، كان هناك تململ واضح ورغبة في الإصلاح تذكيها مقارنة الواقع بالماضي، وتحرضها – إلى هذه الدرجة أو تلك – مجموعة التفاعلات المتقطعة مع طوالع الفكر الغربي التي حملتها مؤسساته التجارية والدينية، وقواها كون الوطن العربي معبراً لخطوط المواصلات والتبادل التجاري بين الشرق والغرب، قبل اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح.

وقد كان لمجموع ما ترافق مع غزوة نابليون لمصر – أو حملته عليها – آثار لا تنكر في إذكاء نزعة الاستقلال وروح النهضة، غير أنه لا يمكن للمرء أن يقر بالمبالغات التي نسبت إلى تلك الحملة والتي يجعلها كثير من المؤرخين سبباً وحيداً أساسياً لجملة التحولات التي ستحدث في الواقع العربي لاحقاً، بل لابد من رؤية ما ترتب على تلك الحملة في حدوده الموضوعية، بصفتها «رجة» كبرى في سياق تاريخي محلي وعالمي معقد ومتشابك ومركب.

لقد حمل نابليون معه مطبعة عربية كان قد استولى عليها من الفاتيكان، ولكنه خصصها في المدة القصيرة التي استغرقتها الغزوة (سنتين وبضعة أشهر) لطبع ما كان يهمه من منشورات دعائية. وقد أنشأ ما أسماه مجمعاً علمياً، ومكتبة للمطالعة، ومسرحاً للترفيه عن جنوده، كما شق بعض الطرق.. وهو ما يظهر مفصلاً في تاريخ الجبرتي، إلا أن الحملة واجهت عداء داخليً وخارجيا قويا، وشبت في وجهها ثلاث ثورات، وذلك ما منع استقرارها فانتهى بها الأمر إلى الجلاء عن مصر بعد هزيمة جيش نابليون أمام أسوار عكا، وتحطم أسطوله في أبي قير.

إن عرب مصر قد اطلعوا – بوساطة تلك الحملة – على المسرح والمطبعة والصحافة، وتعرفوا شيئا من أهميتها وضرورتها، فتحرض الاهتمام بها، وهو ما ساعد لاحقاً على سرعة نشوئها في مصر، غير أنه ما كان

لتلك «البذور النهضوية» أن تنمو إلا بوجود التربة الصالحة، فالحملة إذاً أسهمت في بزوغ النهضة، لكنها لم تكن إلا واحداً من أسبابها الرئيسة ليس أكثر.

وفي تلك الغزوة أو الحملة تم اكتشاف حجر رشيد، ثم استطاع مكتشفه العالم جان فرانسوا شامبليون Champollion حل رموز الخط الهيروغليفي فانكشفت حقائق تاريخية حضارية عريقة كانت مجهولة، الأمر الذي أوجد دافعا إضافيا للعرب المصريين كي يتعجلوا ابتداء النهضة والخروج من حال الخمود السابق، كما أن العلماء المرافقين للحملة – وعددهم يزيد على أربعين – قاموا بتأليف كتاب من عشرة مجلدات، بالفرنسية، سموه، «وصف مصر» Description de l'Egypte صار فيما بعد عونا للباحثين في تحري أوضاع ذلك القطر العربي من جوانبها المختلفة زمن الحملة.

ولعل أهم ما انجلت عنه الحملة هو أنها كانت سببا في ظهور محمد علي، ذلك الضابط الألباني الطموح الذي قدم ليشارك في إخراج الفرنسيين من مصر، فلمع نجمه وانتهى به الأمر إلى أن ولاه الباب العالي (السلطان العثماني) عليها، ومع أنه لم يكن متعلماً فقد ظهر أنه كان يدرك جيدا فضل العلم في نهضات الأمم. فشجع العلماء وأرسل البعوث إلى فرنسة فكان من رجالها أوائل بناة النهضة الفكرية والثقافية في مصر، واستعان كذلك بضباط من فرنسة وغيرها لتدريب الجيش الحديث الذي أنشأه ولتنظيم مؤسساته، وفي الوقت ذاته أنشأ المدارس التي تعلم العلوم الحديثة وتعنى بترجمة كتبها، وأسس أول جريدة في الوطن العربي صدر بعضها باللغة العربية.

ولعل أهم خلفائه هو الخديوي إسماعيل (١٨٦٣-١٨٧٩) الذي أنشأ مدارس للبنات، وأسس المكتبة الخديوية (دار الكتب المصرية اليوم)، وقامت في عهده بعض الكليات الأمريكية في القاهرة والصعيد مثلما انتهى حفر قناة

السويس (١٨٥٩-١٨٦٩) وتم افتتاحها، فاستعاد الوطن العربي مركزه ممرا لطرق التجارة العالمية بين آسيا وأوربة، بما لذلك من منعكسات مهمة على سيرورات التفاعل الثقافي العربي مع ثقافات القارتين المذكورتين.

أما الحملتان المصريتان على بلاد الشام (١٨٣١-١٨٣٣ و١٨٣٩-١٨٤٠) فقد أشاعتا فيها جوا شجع علم الإرساليات فزاد بذلك من تفاعل أبنائها مع الفكر والثقافة الغربيين، إذ أسست تلك الإرساليات عدداً من المدارس واستجلبت مطابع لايزال بعضها يعمل حتى الآن.

وقد سبقت هاتين الحملتين حملة أخرى على شبه الجزيرة العربية (١٨١٢-١٨١٩) منيت بالإخفاق لكنها تركت شعوراً - ولو غائماً - بأهمية وحدة العرب وكما نبهت الأذهان إلى ما كانت تظهر بوادره من نهضة ثقافية في مصر.

وقد ضم محمد علي السودان إلى مصر محققا وحدة وادي النيل، وذلك بين عامي ١٨٢١-١٨٢٣، لكن الإنكليز قاموا باحتلال السودان بعد ذلك فواجهتهم ثورات أهمها ثورة المهدي (١٨٨١-١٨٨٥)، وانتهى أمر السودان إلى ما سمي «السودان المصري الإنكليزي» في ١٨٩٨ وكانت السلطة الفعلية فيه للإنكليز، ثم أصبحت مصر نفسها تحت الحماية البريطانية، وعلى أي حال فإن محاولات محمد علي لضم الأقطار العربية في دولة واحدة قد أيقظت حساً قوميا عربيا شعبيا، وهو ما سيظهر أثره بقوة.

ومع أن ليبيا ضمت إلى السلطة العثمانية عام ١٥٥٦، فقد ظلت تتمتع باستقلال ذاتي، وخاصة في عهد الأسرة القرمنلية (١٧٢٤-١٨٥٣)، أما أقطار المغرب العربي الأخرى فلم تتبع السلطنة إلا إسمياً، واستقلت تونس عنها عام ١٧٩٠ استقلالاً تاما، وظلت الجزائر على تبعيتها الإسمية لاصطنبول منذ أن احتلتها عام ١٥١٨، أما سلطنة مراكش (المملكة المغربية اليوم) فلم تخضع للسيادة العثمانية مطلقاً. وفي عام ١٨٣٠ احتلت فرنسة

الجزائر، ثم تونس عام ١٨٨١، واحتلت إسبانية أجزاء من مراكش (سبتة ومليلة ومنطقة الريف) ثم احتلت فرنسة مراكش بأكملها بين العامين ١٩٠١-١٩٠٤ وتخلت عن بعض أجزائها لإسبانية عام ١٩١٢.

وإذا كان الخمود الثقافي في أقطار الشمال الإفريقي موازياً لنظيره في بقية أرجاء الوطن العربي فإن الاحتلال الفرنسي لأقطار المغرب قد خلق وضعاً ثقافياً متناقضاً ولاسيما في الجزائر التي ضمتها فرنسة إليها وأعلنت أنها جزء منها وفرضت عليها لغتها حتى الاستقلال عام ١٩٦٢، فذلك الاحتلال قد ولد اعتصاماً أشد بالثقافة الإسلامية التقليدية السائدة من جهة، ومن جهة أخرى فتح الأذهان هناك على ثقافة الغرب وفكره، لكن آثار ذلك سوف تتأخر في الظهور، وهذا ماجعل بواكير النهضة وتطوراتها خلال القرن التاسع عشر وقسم غير قليل من القرن العشرين تكاد تنحصر في مصر وبلاد الشام ثم العراق إلى حد ما.

وما يمكن أن يخلص إليه في هذا التقديم هو أن تلك النهضة يجب أن ينظر إليها في سياق فعالية النمط الحضاري الغربي وحركته الاستعمارية، وعد هذه النهضة محاولة للرد على تحديات حركة هذا النظام لوجود الأمة العربية من موقع الصراع معه من أجل البقاء والتقدم، إن ثمة منظومتين ثقافيتين تتفاعلان في إطار تناقضاتهما المفهومية والقيمية: الثقافة العربية الإسلامية، والثقافة الغربية الرأسمالية الاستعمارية، وفي الظروف السائدة حتى اليوم فإن الثانية هي المهيمنة، أما الأولى فمتعثرة الخطا وتابعة من منظور علاقات أصحابها بالغرب.

وهناك أخيرا أمرا لابد من الإشارة إليه لأنه يتضمن في النهاية إشكالية ذات صلة بالمصطلح الذي تندرج تحته مادة هذا البحث، فمصطلح «العصر الحديث» هنا يوحي بإشارة ضمنية إلى فكرة «الحداثة» Modernisme من حيث كونها تملأ هذا العصر بمعطياتها على سائر

الصعد، وتعد «الحداثة» في منظور الفكر الأوربي – وهو مصدر هذا المصطلح – حالاً من القطيعة المعرفية الشاملة: فلسفيا وعلميا واعتقاديا.. وحالاً من القطيعة الشاملة في التقنية والاقتصاد والبنى والعلاقات الاجتماعية.. بين ما أنجزته أوربة منذ ابتداء نهضتها حتى اليوم وما سبق ذلك في العصر الأوسط وفق تقسيمات التاريخ الغربي حسبما صنفها الفيلسوف الألماني هيغل Hegel.

ولما كان «العصر العربي الحديث» – أي القرنان التاسع عشر والعشرون – لا يتضمن شيئاً من تلك القطيعة الأوربية المركبة، ولما كانت التبعية هي سمته الكلية، ولما كان الأدب العربي فيه متأثراً بالضرورة بهذا الوضع التاريخي الحضاري الإجمالي التابع: سواء من حيث تاريخية إنتاجه أو من حيث أنماطه الفنية، ولدلالاته الفكرية والنفسية، وأساليب إنشائه «خطاب» محملاً بروح هذا العصر... فإن معنى «الحداثة» هنا لا يشير إلى تعبيرات فنية مؤصلة على تغيرات نهضوية جذرية متواصلة في الواقع المعاش، بل هي تشير إلى «تزامنات فنية عارضة» – إذا صح التعبير – لواقع يضطرب ويتماوج فيه خليط من مورثات مراحل الحضارة العربية إبان ازدهارها، لكنه خليط مأخوذ بصورة انتقائية، وخليط آخر من تناثرات ما يصل من علوم الغرب وفلسفاته وفكره وأدبه.. فيصطدم الخليطان ويتقاطعان عند حدين من رغبات العرب المتناقضة: رغبات تمسكهم بموروثهم، ورغبات لحاقهم بالغرب المهيمن عموما.

إن هذه الإشكالية قد تركت ولا تزال تترك آثارها بقوة في الأدب العربي المعاصر، وهي إشكالية يجب أخذها دائماً بالحسبان عندما يوصف هذا الأدب وزمنه «بالحداثة». إذ بها – بوصفها تعبيرا عن انعدام القطيعة وعن التبعية السابقتي الذكر – ترتبط مختلف المصطلحات ذات الصلة بما هو معالج في هذه المادة.

وبمراعاة هذه الإشكالية يمكن القول: إن ثمة يقظة عربية عامة قد ابتدأت، نشطة، في مصر في زمن حكم محمد علي باشا، فلقيت تجاوباً سريعاً نسبياً في بلاد الشام. وأخذت القوى الكامنة في الأمة تتيقظ بفعل مختلف البواعث التي سبق ذكرها. فتسارع إنشاء المدارس الوطنية، وتوالى صدور المجلات والصحف وتأسيس المطابع، وتزايدت ترجمات الكتب العلمية والأدبية الأجنبية إلى اللغة العربية، ونشر كثير من كتب التراث، وتألفت الجمعيات والنوادي الأدبية، وأنشئت المكتبات العامة والمسارح ومجامع اللغة العربية.. كما تزايد إنشاء الجامعات ومعاهد البحث ومؤسساته المختلفة إضافة إلى المراكز الثقافية وسائر مؤسسات «وسائل الاتصال الجماهيري» من إذاعات ومحطات بث تلفزيوني، ولا يكاد قطر عربي يخلو اليوم من وزارة للثقافة.. وكل ذلك يساعد بصورة مباشرة أو غير مباشرة في ارتقاء الإنتاج الأدبي العربي المعاصر وتعميم إيصاله إلى جماهير المثقفين والمتعلمين بمختلف السبل والوسائل المعتمدة في بقية أنحاء العالم.

المصادر والمراجع

١. **شوقي ضيف:** النقد ، دار المعارف (د،ت)

٢. **ابن سلاّم الجمحي:** طبقات الشعراء، تحقيق عمر فاروق الطبّاع، دار الأرقم بيروت ١٤١٨هـ ١٩٩٧م

٣. **ابن قتيبة الدينوري:** الشعر والشعراء، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، دار المعارف (د،ت)

٤. **قصي الحسين:** النقد الأدبي عند العرب واليونان معالمه وإعلامه، المؤسسة الحديثة للكتاب طرابلس لبنان ٢٠٠٣م.

٥. **د. مصطفى عبد الرحمن:** في النقد الأدبي القديم عند العرب، مكة للطباعة ١٤١٩هـ ١٩٩٨م.

٦. **د. علي جواد الطاهر:** مقدمة في النقد الأدبي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت لبنان سبتمبر ١٩٧٩م.

٧. **د. شوقي ضيف:** تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي، دار المعارف الطبعة الثامنة.

٨. **الجاحظ:** الحيوان (المكتبة الشاملة موافقة للنسخة المطبوعة بمطابع الحلبي).

٩. **الأصبهاني:** الأغاني (المكتبة الشاملة موافقة للمطبوع، نسخة دار بولاق مصر).

الفهرست

م	الموضوع	الصفحة
١	التمهيد	٤
٢	العصر الجاهلي	١٤
٣	العصر الإسلامي	٤١
٤	العصر الأموي	٥٥
٥	العصر العباسي	٧٥
٦	عصر الدويلات المتتابعة	٩٠
٧	العصر الأندلسي	١٠٦
٨	العصر الحديث	١٢٦
٩	المصادر والمراجع	١٣٦
١٠	الفهرست	١٣٧